

الوصف

N. O

808.1 : D12aA.

فنون الادب العربي

الوصف

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
MAR 7 '70	9 64-1476		
23. 2. 73	F299J		
	73-2159		
4 DEC '70	555 J		

808.1
D12aA

DATE DUE

JAFET LIB.
15 FEB 1991

808.1
D129A

فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٣

الوصف

يشارك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

دارالمعارف

تمهيد

١ منذ قامت العبقريّة في الدنيا سعى الفنان إلى الطبيعة في حب وإعجاب ونشوة وذهول ، فسكّر بجمالها ، وانتشى بمحاسنها ، واتخذها مثلاً يحتذيه ، يصوره ويقلده بالأصوات أو بالألوان ، فكان الرسام والنحات والموسيقى والشاعر ١. وكل منهم عمد إلى الأرض والسماء ، والحيوان والنبات ، والإنسان والماء ، يرسمها بخياله ويصفها بفنه ، فخلف في متاحف الفن صورة لإبداعه ومثلاً من خلقه .

٢ والشاعر العربي فنان مبدع سار في ركب هؤلاء العباقرة الإنسانيين فرسم ما رأى وصور ما شاهد ووصف ما أحسّ ، فترك في المتحف الأدبيّ صفحات خالدة على اختلاف العصور ، تقف لمتاحف الرسامين والنحاتين والمصورين في إبداع الخطوط وقوة التقليد والمحاكاة ، ونقل الصوت والحركة والنشاط ، ورسم الحديث واللون والظل ؛ سواء أكان في رسم الطبيعة أم في تصوير الإنسان والحيوان ، أم في وصف الأخلاق والطباع والعادات ٢. فلعله فهم الأدب على أنه وصف كله ، ولعله سار فيه على أنه وصف حسي مادي ، في مدحه للرجال ، أو هجائه للخصوم ، أو فخره بقوته وشجاعته ، أو رثائه للأحبة الذين يفقدهم ، أو في نسيبه وتشبيهه بالمرأة والجمال .

فلما عرض النقاد القدماء لهذا الشعر قسموه إلى أبواب فيها المديح والفخر والهجاء والرثاء والنسيب والوصف . ورأوا أن الوصف يغلب عليها جميعاً ويشملها بردائه حتى قال ابن رشيق : « إن الشعر إلاّ أقله راجع إلى باب الوصف » . وقد جعلوا الأبواب الخمسة للإنسان تصف أخلاقه وطباعه ومزاياه

ومحاسبته وخلقته وتكوينه ، وخصوا الوصف بالحيوان والنبات والأرض والماء والنار والسماء ، وأدخلوا الخمر فيها على أنها بعض هذه الأجزاء .

وفسروا الوصف في معاجمهم بأنه الكشف والإظهار ، فإذا قالوا : وصف الثوب الجسم فقد أرادوا أنه نم عليه ولم يستره ، فهو في عرفهم ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات ، وقد نظر النقاد المحدثون إلى ما قيل في الطبيعة الميتة وفي الطبيعة المتحركة ، فرأوا أن الشعر يكشف عنها ويرسم حالها وهيئتها ، لذلك جمعوا ما كان في الوصف ، فسموه حيناً بشعر الطبيعة وحيناً بشعر الوصف ، وألفوا فيه بعضاً من الفصول والكتب .

وقد خصص القدماء أبواب الوصف بعنايتهم فعرضوها في مختاراتهم وتحدثوا عما فيها من بلاغة وفصاحة ، وبعض هذه المؤلفات مطبوع ، كتشبيهات ابن أبي عون وديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، ونهاية الأرب للنويري ، وبعضها مخطوط كالنخب والمحجوب والمشوم والمشروب للسري الرفاء ، والتحف والهدايا للخالدين ~~عليهم~~ وقد رجعنا إلى هذا كله ، واعتمدنا عليه ولا سبيل إلى ذكر الصفحات والمراجع القديمة والحديثة عند كل استشهاد فذلك يطول ، وفيه الشعر والنثر ، فوقفنا عند الشعر فحسب لأنه ألزم بالبحث .

ونحن حين نجمع هذه الألواح والصور بعضاً إلى بعض ونقرب بينها نستطيع أن نتبين من خلالها صورة للأرض التي عاش عليها العرب من وهاد وتلول ، وصحارى ورياض ، وأنهار وبرك ، وزهر ونور ، وشجر وثمر ، ورسماً للحيوان الذي كان يدب بينهم ، وللقصور التي كانوا يشيدونها ، والطلول التي كانوا يغادرونها ، ولجالس الشراب التي كانوا يعقدونها ، والحروب التي كانوا يخوضونها ؛ ونلمح الوجوه والملابس لمختلف الطبقات والأمم التي اختلطوا بها ، وما كانوا يستحبون منها ، وما كان يدور بينهم من حديث فيها ، وما كانوا يفضلون من جو وبيئة ، وما ينظرون من الأفلاك والسماء والسحاب والمطر ، فكأننا نتعرف إلى حياتهم

الاجتماعية كما صورها شعراؤهم على اختلاف العصور والأقطار، وقد انعكست في أوصافهم نفسياتهم وحالاتهم من فرح وحزن، وحب وكره، ورضا وحقن، وحرب وسلم.

فقد كانوا يستلهمون من طبيعتهم وزمانهم أوصاف ما تقع عليه أعينهم وتجري فيه أخيلتهم، في البدو والحضر، في الحجاز أو في الشام، في العراق أو في مصر والأندلس، بل كانوا يختلفون في ذلك حين تقسو الطبيعة أو تلين، وتسخو الحياة أو تبخل، فالراعي غير الأمير، والمقاتل غير اللاهي، وساكن الصحراء يختلف عن سكان الأنهار، والحياة في العصر الجاهلي تختلف عما آلت إليه في العصر العباسي أو الأندلسي، فإذا كانت قد تشابهت صور الوصف في هذه العصور فردها إلى الحنين أو التقليد، أو الضعف وقعود العبقريّة. وأغلب الظن أن العربي تأثر بالأمم قبل الإسلام حين اتصل بالفرس أو بالروم قبيل القرن السادس للميلاد، فقد عاشت قبائلهم في كنف الغساسنة والمناذرة، وسافر شعراؤهم إلى هؤلاء وهؤلاء، فألفوا الغناء الفارسي أو النشيد الرومي، وانتقل ذلك إلى أقوالهم وأحاديثهم وشعرهم من غير أن تفسح الكتب عن هذا الأثر، أو يشير التاريخ إلى هذا التفاعل.

فلما انتقل العباسي إلى العراق وتغلغلت الحضارة الفارسية في حياته وانتقلت إلى شعره ذكر النقاد هذا الأثر وبالغوا فيه، لأنهم كانوا يشيرون إلى كل مصدر، ويبحثون عن كل ينبوع، ويتحدثون عن فضل الأعاجم، فأروا أن الوصف طبع بطابع الحضارة الحديدية، وألمّ بتقاليد الفرس. ولما كان القرن الرابع للهجرة تأثر العباسيون بهذه الصور ودرجوا على حبها ومعالجتها، فحلق الشعراء في الوصف وبلغوا ذروة الفن، وطرقوا الموضوعات في عمق وشمول، ورسوموا الحياة في كثير من الإبداع والدقة.

وحين عاش العربي في الأندلس ظل قروناً يقلد المشرق، حتى كان القرن

الخامس للهجرة ، فحاول أن يجدد وأن يخرج عن نطاق الأدب القديم ، فكانت له صور موفقة وأساليب جديدة ، تقع حيناً من القرن الرابع موقع الشبه والمجاورة . ولما أطلّ العصر الحاضر غزت الحضارة ديار مصر ، واتصلت الشام بأسباب الغرب فتحرك الوصف نحو الطرافة والحدة ، وبلغ مبلغاً من التوفيق خلال السنين الأخيرة في الشام ومصر ، يبعث الأمل في أدب المستقبل X

وسنعرض في الصفحات التالية فصول هذا التطور ، ونبسط بعض صور الطبيعة الميتة والمتحركة ، فنرى كيف نظر العربي على اختلاف الزمن إلى موضوعات الوصف من حيوان وأرض وسماء وخرم وسلاح وحرب ، في العصر الجاهلي ثم الأموي ، فالعباسي والأندلسي ، إلى أن نبليغ المعاصرين فنلم في إيجاز بشعرهم في الوصف ، نورد الأمثلة حيناً ونختصرها حيناً ، ونحكم عليها أو لها ، وما هي إلا محاولة في هذا الباب نرجو أن تقع موقع التوفيق ، لسعة البحث وتعدد مناحيه ، والله من وراء القصد .

سامي الدهان

الفصل الأول

العصر الجاهلي

وصف الحيوان

الناقة - الفرس - البقرة الوحشية - الثور الوحشى -

الظلم - العقاب - الذئب

عاش العربي في جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح ، وتشتد عليها الطبيعة وتقسو ، فكان ينتقل في سبيل العيش ، ويضرب في الأرض وراء اللقمة ، فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحارى شاسعة كأنه في ركب الحياة على سفينة تتقاذفه تعلو به وتهبط ، فيلقى مصاعبها ومتاعبها إلى أن يرسو به القدر عند مرفأ أمين يحط فيه رحاله ويلجأ إليه حيناً من زمن .

وكان سبيله إلى هذا التنقل حيوان يقتسم معه هذا العيش الشديد يقطع عليه المسافة فيرافقه ويعايشه ، ويقضى معه أكثر حياته فيألفه ويحبه ، ويرى فيه أعظم صديق وأنبى رفيق ، يتحمل معه التعب والعناء والسير والسرى ، وقد وجد ضالته هذه في الناقة والفرس . فالناقة تنيخ بإناخته وتمهض إلى غايته ، تسير كما يريد في إرقال أو وخذ ، تؤنس وحشته وتخفف وحدته ، فيغنيها وينشدها إذا أتبع له أن يغنى أو ينشد ، فالحيوان يتأثر بالموسيقا والحداء .

والفرس صديق العربي في عيشه كذلك في الحرب والسلم ، في الحياة الجادة والهازلة ، حين يحارب الإنسان أو يصطاد الحيوان ، وهو وفي له يصحبه في السراء

والضراء وحين البأس ، فهو قوته وسلاحه ، وموضع مجده وعزته وفخاره .
 لذلك أحب العربي هذا الحيوان ورأى فيه نجدة وملاذاً ، فهو منبع ثروته
 ومحل إكباره ، يذكره كما يذكر الغزلون المرأة ، يحبه ويستوحى منه . وسنعرض
 لهذه الصور التي صنعها الشعراء في الحيوان الأنيس ، ونجعلها بعضاً إلى بعض
 لتبين الصورة التي رسمتها أخيلتهم ومشاعرهم لهذا الرفيق المخلص والصديق الوفي ،
 كما نعرض لوصف الحيوان المستوحش بعده ، وهم يطاردونه ويصطادونه ، فيرون
 فيه الشريد الطريد . وسنبداً بالأنيس قبل كل شيء كالناقة والفرس .

الناقة

أحب الجاهلي الناقة لأنها تغذيه بلبها، وتكسوه من وبرها، وتطعمه من لحمها،
 فهي عنده غذاء وكساء، وهي حياته في هذه الصحراء . وقد تعاقب على وصفها
 كثير من الشعراء ، سنتخذ أمثلتهم مما بسطته كتب المحدثين (١) ، لنرى أيهم
 أجاد في رسمها ووفق في وصفها ، وفيهم بشامة بن الغدير ، وطرفة ، والمسيب ،
 وزهير ، والمثقب .

أما طرفة بن العبد ، فقد عاش في القرن السادس للميلاد ، وقضى شاباً
 وشقى كثيراً ، ولكنه كان سريع الخاطر حاد الذهن ، فانصرف أول الأمر إلى
 اللهو والأنس والشرب واللذة ، ولذلك كثر لوامه ، وتباعد عنه إخوانه ، فعاش
 حزيناً يهيم على وجهه، يشتغل بالغزو أو يأوى إلى مغاور الجبال ، لا أنيس له إلا
 هذه الناقة الأمانة الضامرة ، فكان يطوف عليها أطراف الجزيرة ، لذلك طالت
 صحبتها لها ، وكثر نظره إليها، وأبعد في وصفها حتى أبدع وفاق أقرانه ، فأكسب

(١) أخص بالذكر منها كتاب «الوصف في العصر الجاهلي» - لعبد العظيم القنواوي ،
 فهو جامع مانع في هذا الباب .

صورتها نشاطاً وحركة ، وكساها بالظلال ، ورسم جسمها في خطوط كبيرة على دقة واستيعاب ، قال في معلقته :

- وإني لأمضي الهم عند احتضاره
أمون كألواح الإيران نسأتها
لها فخذان أكمل النحض فيهما
وطى محال كالخني خلوفه
كقنطرة الرومي أقسم ربهما
وأتلعُ نهاضٌ إذا صعدتُ به
وجمجمة مثلُ العلاة كأنما
وعينان كالماويتين استكنتا
وخذُ كقرطاس الشامي ومشفرُ
بعوجاء مرقال تروح وتغتدى (١)
على لاحب كأنه ظهر بوجد (٢)
كأنهما بابا منيف ممرد (٣)
وأجرنة لزت بدأى منضد (٤)
لتكسفنن حتى تشاد بقرمد (٥)
كسكان بوصى بدجلة مصعد (٦)
وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد (٧)
بكهفي حجاجي صحرة قلت مؤرد (٨)
كسبت اليماني قده لم يحرد (٩)

- (١) الاحتضار : الحضور - العوجاء : الضامرة التي لحق بطنها بظهرها - الأرقال : السرعة - تروح وتغتدى : أي تصل آخر النهار بأوله في السير .
(٢) أمون : يؤمن عثاها - الإيران : تابوت كانوا يحملون فيه الموق - نسأتها : زجرتها والمنسأة هي العصا - اللاحب : الطريق البين - البرجد : كساء مخطط .
(٣) النحض : اللحم - المنيف : القصر المشرف - ممد أو ممرد : أملس .
(٤) طى محال : أي محال مطوية متراصفة دان بعضها من بعض - المحال : فقار الظهر واحدته محالة - الخني : ج حنية وهي القوس - الخلوف : ماخير الأضلاع - أجرنة : ج جران وهو باطن الخلقوم - لزت : ألصقت - الدأى : ج دأية وهي فقار العنق - المنضد : الملتصق بعضه ببعض -
(٥) قنطرة الرومي : شبه الناقة بها لانفتاح جوفها وشدة خلقها - الأكناف : النواحي - تشاد : ترفع - القرمد : الأجر .
(٦) أتلع : العنق الطويل - نهاض : مبالغة في النهوض - السكان : دفة السفينة - بوصى سفينة .
(٧) العلاة : السندان - وعى : جمع - الملتقى : حيث تلتقى قبائل الرأس .
(٨) الماوية : المرأة - الكهف : الغار - حجاج : عظم مشرف على العين ينبت عليه الحاجب قلت : نقرة في الحجر تسمى الماء - المورد : الماء .
(٩) السبت : جلود البقر المدبوعة - لم يحرد : لم يعمل فهي شابة لم تمل مشافرها - القد : ما قد من الجلد .

فالناقة ضامرة نجبية سريعة مرقال ، وذنبها ذيالٌ كثير الوبر يشبه في ذلك جناحي نسر قديم ، ولها فخذان مكتمزان باللحم ، وفقرات متداخلة تكوّن مع الأضلاع قسيماً متراصة . وهي في صلابتها كقنطرة الرومي بناها الصناع بالآجر المتين . إنها ضخمة الرأس طويلة العنق قوية ، ولها خد كالقرطاس الشامى أبيض لا شعر فيه ، ومشفر كالجلد المدبوغ لم يميل في تقطيعه ، وعيناها كالمراآتين استكنتا في كهف جبلى .

هذا إذا وقفنا عند ظاهر جسمها وأعضائها ، ولم نتجاوز إلى حذرنا وسرعة سيرها ونشاطها ، وطاعتها ولين انقيادها ، فالشاعر شبه كل عضو من أعضائها بشيء وقع عليه حسه كالنسر ومشيد القصور ، والقسي والقنطرة والقرطاس الشامى والجلد المدبوغ والمرآة . وهذه كلها في متناول خياله أو في ملك نظره يمد يده إليها حين يريد . وقد بسطها بسطاً مادياً حسياً ، فتصور أجزاءها شبيهة بهذه الأشياء . وقد رأينا الألفاظ عند الشاعر غريبة جداً ، طواها الزمان وسكت الشعراء عن ترديدها ، وقد كانت مألوفة لعهدده فتصرف فيها تصرف المعتر الفخور ، وطرق بها هذه المعانى النادرة ، ورسم أجزاء من الحيوان لم يكن بد من وصفها بهذه المفردات ، ولعله عبد الطريق لغيره من الشعراء في وصف الناقة والإمام بهذه التشبيهات المادية ، فأوغلوا في التصوير وساروا على سننه ، وهم كثير لا يحصون ، سنعرض لبعضهم هنا .

أما بشامة بن الغدير ، فقد قال إن أذن الناقة ضخمة تتبلل بالعرق ، ولها صدر عريض كأنه الطريق الواسعة ، وهي شديدة الوطاء كالسيد القوى العزيز يطاءً الدليل في جبروت ، وأنها أسرع من نعامه حين يطاردها الظلم ، وهي في ضخامتها تشبه السفينة تمخر العباب وتجري في اليم لا يدركها أين ولا يلحقها ونى ، مكتمزة اللحم ، قوية الفخذين ، متسعة الصدر ، سريعة السير ، تجرى كأنها تخوض في عباب متلاطم :

إذا أقبلت قلت : مدعورة أطاع لها الريح قلماً جفولاً (١)
 وإن أدبرت قلت : مشحونة من الرمد تلحق هيقاً ذمولاً (٢)
 وإن أعرضت راء فيها البص ير ما لا يكلفه أن يفيلاً (٣)
 فإذا أقبلت عليك حسبها قد تملكها الذعر وركبها الفزع لشدة نشاطها ،
 وإذا أدبرت حسبها سفينة ، وإذا تحولت عنك عرفت منها ما لا يخطيء معه
 ظن ولا يخيب فيه تقدير .

والمثقب العبدى ، قال فيها كقول زميليه ، فوصفها بوفرة اللحم وكثرة الشحم
 وسمنة العنق ، سنامها ضخم يشبه قبة القصر العظيم ، ممتلئة الوجنتين ، ثخينة
 الجلد وأعضاؤها كأعضاء الحمل ، تتسامى بعنقها إذا سارت وكأهلها سامق
 كالحصن المنيع . وهى كذلك سريعة الجرى جميلة فى إرقالها ووخدها ، تصل
 الليل بالنهار ، ولا تحوج حاديتها إلى زجر أو نغم ، تشبه فى جمالها الثور الوحشى
 ولا يصف المثقب أعضائها كلها ، ولا يبلغ إلى إحصاء كل ما فيها ، وإنما
 يذكر خدمتها له وقيامها بمهمتها فى صبر وجلد ويقظة ، وهذا كل ما يحتاج إليه
 السارى والراكب .

وزهير بن أبى سلمى ، يصفها ضخمة الوجنات وثيقة الأعضاء تشبه الحمل
 كذلك فى خلقها وانبساط هيكلها ، نشيطة سريعة ، تطيع فلا تحتاج معها إلى زجر
 أو ضرب أو تشويق ، تسير الليل والنهار فى صبر وجلد ، وتعرق حين تغذى فى
 مسافات شاسعة واسعة ، وذنبها ريان غليظ ضخم تضرب به ساقها ، تجرى فى
 سرعة كالريح لتبلغ بك إلى الهدف وتصل إلى يم النجاة ، تشبه البقرة الحنساء فى
 جمالها وتكوينها ، كريمة عزيزة جوابة الآفاق ، ذكية الفؤاد ، شديدة الذعر مخافة

(١) أطاع لها : هيا لها - جفولاً : مسرعاً .

(٢) مشحونة : مملوءة - الرمد : ج أرمد ورمداء وهى النعامة - الهيق : ذكر النعام -

ذمولاً : مسرعاً .

(٣) راء : رأى - يفيلاً : يخطئ .

أن ينهال عليها السوط ، وزهير في وصفه لا يرسم الأعضاء كلها ولا يفصل القول فيها ، وإنما يتحدث عن حاجته إليها في السرعة والصبر وعظيم الخدمة .

والمسيب بن علس ، شارك في وصف الناقة ، ورسمها ضامرة الخصر واسعة الخطو ، حديدية البصر ، شديدة الإذعان ، ظهرها كقنطرة ملساء ، مكتنزة اللحم ، وسنامها ضخمة متعال يشبه أكمة الرمل ، وعنقها مستطيل كالشراع ، قوية الصدر نشيطة تندفع نحو العدو كأنها تقاذف كرة في أرض منخفضة سهلة ، أو كأنها في سرعتها امرأة تريد أن تنسج ثوبها وأن تتمه قبل أن يقع المساء وتطوى شراع النهار . وهذه الصورة يعبر عنها في أسلوب جميل بين يقول :

مرحتُ يداها للنجاء كأنها تكرو بكفى لاعب في صاع (١)

فعل السريعة بادرت جدآدها قبل المساء تمهم بالإسراع (٢)

فدلنا بذلك على ما كان للاعب في أرض العرب وما للمرأة من عمل في بيتها حين تختلس ساعات النهار في نسج الثوب قبل أن يهبط الظلام فيلف الدنيا بردائه . وهو لطيف حين يطير بتصويره إلى قبيلته فيرسمها لاعبة لاهية أو بصور النساء في عملهن اليومي .

وهؤلاء الشعراء يتشابهون في وصف نياقهم ، فيرسمونها بالضخامة والقوة وسرعة الجرى وشدة الطاعة ويستعملون في ذلك الصور الحسية المادية ، ويشبهون كل عضو بصورة عرفوها وألفوها في حياتهم الاجتماعية . يشبهونها في قوتها بالإبل وهذه معروفة بالسرعة والقوة ، ويرون فيها سبيلاً للنجاة من المفاوز والبادى ، وسفينة في عباب الصحراء يركبونها إلى غاياتهم وأهدافهم ، فلا تتوانى ولا تتمهل ولا يدرکها تعب أو إرهاق ، على أنها تشاركهم الشقاء في العيش

(١) مرحت : نشطت - النجاء : الإسراع - تكرو : تلعب - الصاع : المنخفض من

الأرض .

(٢) الجدادة : ما بقى من خيوط الثوب .

والضنك في الحياة ، وتقاسمهم الآلام والآمال ، فتمحس برغباتهم وتطيع حاجاتهم ،
تسرع من غير وقوف ، وتسير من غير زجر ، وتجرى من غير حذاء أو غناء .
وقد سبقهم طرفة فوصف ما وصفوا ، وأضاف إلى أوصافهم أعضاء الناقة ،
ولكنه أوغل في غرابة اللفظ وأسر المفردات ، فزاد على زملائه في خشونة التعبير ،
وسبقهم في دقة التصوير .

الفرس

وإذا كانت النياق وسيلة النقل — كما نقول اليوم — فالخيل كانت للركوب
في الزينة والصيد والحرب ، تشارك الفرسان في الطعن والضرب واللهو والصيد ، وقد
أقبل عليها شعراؤنا فوصفوها بحمالها وسرعتها ، ولشاركتها في المواقع والمعارك والمآسي
والملاحم والأفراح والأتراح ؛ فهي للترف كما هي للحاجة . وقد جاء في كتب
الأدب أن العرب كانت ترتبط الخيل في الجاهلية والإسلام معرفة بفضلها وما
جعل الله تعالى فيها من العز والفضل ، فتكرمها وتؤثرها على الأهلين والولد ،
وتفتخر بذلك في الشعر والنثر .

وقد نقل في هذه الكتب أن داود نبي الله أحب الخيل حبا شديداً ،
فلم يكن يسمع بفرس يذكر بعرق أو عتق أو حسن أو جرى إلا بعث إليه
حتى جمع ألف فرس ؛ وجاء فيها أن سليمان أحبها كذلك . ونسجت كتب
الأدب حول الخيل صفحات عديدة تشرح فضلها ، وما قال فيها القدماء
من شعر وما حام حولها من أساطير وقصص ، وما اتخذوه لها من أسماء خاصة
وأنساب معينة تجدها في «أنساب الخيل» لابن الكلبي وفي «الحيوان» للجاحظ ، وفي
«حلية الفرسان وشعار الشجعان» لابن هذيل وغيرها ، يطول بنا المقام إن عرضنا ما
تقول فيها . فحبت الخيل قديم قبل الإسلام وبعده ، وذلك لتعلق العرب بهذا الحيوان
وطول صحبتهم له وشدة أنسهم به . فلا غرابة إن نشأ ديوان ضخم في رسمه منذ

الجاهلية ، فقد وصف الفرس كثير ، وفيهم امرؤ القيس ، وعنزة ، والمرقش الأصغر . . .

أما امرؤ القيس ، فقد وصفها في مواقع عدة من شعره في المعلقة وغيرها ، فرسمها في ضخامتها وقوتها ، وصور ظهرها وخصرتيها وساقبيها وذنبها ، واكتفى بالخطوط العريضة الكبيرة كما فعل طرفة بناقته ، ولكنه لم يشبه أجزاءها بالقصور والدور والسفن والقناطر ، وإنما عمد إلى الظبي والنعامة والثعلب والذئب والصخر والمطر والجبل ، وتطرق في وصفه إلى الأطفال البنات والنساء فشبه أعضاءها بشيء من هذا كله ، أو بما يقومون به من ألعاب وحركات ، واستعان بالتشبيهات على عرض صورة للمسافة والحيز واللون لعله يقربنا من أوصاف فرسه ، ونفخ في الصورة بروح الحركة والنشاط بما يستلزمه الصيد والطراد فقال :

- ✓ وقد أعتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)
 ✓ مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل (٢)
 ✓ كبيت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل (٣)
 ✓ على الذبل جياش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل (٤)
 مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن غباراً بالكديد المركل (٥)

- (١) أعتدى : أذهب باكراً - الوكنات : ج وكنة وهى عش الطائر وبيته - المنجرد : قليل الشعر - قيد الأوابد : يقيدها بسرعة ركضه - هيكل : عظيم الحرم .
 (٢) كرفرسه على عدوه : عطفه - مفر : مبالغة في الرجوع - الجلمود : الصلب من الصخر
 (٣) الكبيت : ما لونه بين السواد والحمرة - الحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس - الصفواء : الصخرة المساء - المتنزل : صفة لمحدوف تقديره المطر .
 (٤) الذبل : الضمور والضعف - جياش : مبالغة من الجيشان وهو الهياج والغليان - الاهتزام : صوت الفرس في سرعة السير .
 (٥) مسح : مبالغة من السح وهو الصب والدفع - السابح من الخيل : الذى يمد يديه في عدوه - الونى : التعب - الكديد : الأرض الصلبة المظمتنة - المركل : الذى وطنته الأرجل .

- يزل الغلام الحلفَ عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل (١)
 ✓ درير كخذروف الوليد أمرهُ تتابع كفيه بخيط موصل (٢)
 ✓ له أبطلا ظبي ، وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٣)
 ✓ ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل (٤)
 كأن على المتنين منه إذا انتحى مدالكَ عروس أو صلاية حنظل (٥)

فهو يغدو باكراً قبل أن تهجر الطيور وكناتها، فيعتلى صهوة جواد قد انحسر شعره لشدة سمنه ، ماض لا يقف ، سريع يسبق الوحوش الأوابد فيقيدها بسرعه وما تستطيع منه فكاكا ، وهو يكر فلا يلحق ويفرّ فلا يسبق ، يقبل ويدبر شديد الحركة عظيم القوة ، يجري كالحجر الكبير حين يسقطه السيل من أعلى الجبال ، ضخم في جنته ، مكتنز اللحم حتى ليسقط اللبد عن ظهره سقوط الماء على الصخرة الملساء ؛ يهلر في ركضه كما يجيش المرجل بالماء . وإذا كانت الجياد تثير الغبار لكلالها فهو ينصب انصباباً ، فلا يثبت الغلام الخفيف على صهواته ، ويسرع كالخذروف في يد الصبي .

ولذا الفرس خاصرتا ظبي وساقا نعامة ، يسير كما يسير الذئب ، ويجرى كالثعلب الوليد ، وهو على ضموره عظيم الأضلاع إذا تأملته مستدبراً رأيته يسد الفضاء بين قائمته بذنبه الطويل ، وإذا نظرت إليه بغير سرج وجدته يلتمع

- (١) الصهوات : ج صهوة ، وهي مقعد الفارس من ظهر الفرس - العنيف : ضد الرفيق .
 (٢) درير : صفة للفرس الذي يدر الجرى أى يديه ويتابعه - الخذروف : آلة مستديرة من جلد أو خشب يديرها الصبيان بخيط أدخل في ثقبها .
 (٣) الأبطل : الخاصرة - إرخاء : ضرب من عدو الذئب - السرحان : الذئب - تقريب : ضرب من العدو كذلك - تتفل : ولد الثعلب .
 (٤) ضليع : عظيم الأضلاع - استدبرته : نظرت إليه من مؤخره - الفرج : الفضاء بين الديدن والرجلين - ضاف : طويل - أعزل : يميل عظم ذنبه إلى أحد الجانبين .
 (٥) المتنان : ما على يمين الفقار وشماله - انتحى : اعتمد - المدالك : الحجر الذي يسحق به الطيب - الصلاية : الحجر الأملس .

جلده كما تلمع الصلاية والمداك في بريق ولعان .

والشاعر في وصفه الفرس يختار له الضخامة والقوة والصلابة والسرعة، ويختار لوصف ذلك صوراً من الحياة التي يراها والأدوات التي يصبح عليها ويمسى ، فهو كالصخرة المتحدرة مع السيل، وهو في صوته كالمرجل حين يغلي ، وساقاه كالنعامة، يشبهه حيناً بالثعلب وحيناً بالذئب . وما نرى جاهلياً يستطيع أن يصطاد ألواناً أكثر من هذه ، أو يجمع تشبيهات أوسع ، فقد أوفى على الغاية في رسم القوة والسرعة . ولعله بذلك نحت تمثلاً للفرس كأجمل ما يصنع المثال في خطوطه العريضة . ولكنه لم يرسم العينين والوجه والغرة والعروق ، وإنما وصف الحركة والضجة والصوت والنشاط ؛ وذكر الخدمة التي يؤديها لصاحبه في سرعته وبلوغ غايته . ولعل هذا كل ما يطلب امرؤ القيس من فرسه، يفخر به ويعتز بامتلاكه .

وعنتر بن شداد العبسي ، افتخر بفرسه كذلك ووصفه بأنه ضخم الجسم عظيم الأعضاء ضامر الخصر متلاحق الأقارب ، عظيم الكفل مكتنر اللحم ، ممتلئ بالشحم ، ولكنه على ذلك كله لين العريكة سهل القياد كثير الحركة يتلاعب بحديد لجامه .

والفرس عند عنتر كذلك في جريه يشبه السيل المنهمر على الصخرة الملساء ، ولكنه وصف وجهه ورسم منخره كسردابين مفتوحين ، يستكن فيهما الضبع لاتساعهما ، وصور حوافره بصلابتها كأنها من صخر ، وجعل ذنبه في طوله كرداء سابغ لرجل غني واسع الثروة ، وقد أبدع في وصف عينيه ومشيته حين قال :

سلس العنان إلى القتال فعينه^١ قبلاء^٢ شاخصة^٣ كعين الأحول^١ :
وكان مشيته إذا نهنته^٤ بالنكل مشية شارب مستعجل^٢

(١) سلس العنان : لين القياد - قبلاء : ناظرة إلى أعلى - الأحول : الرجل الذي يحرف إنسان عينيه إلى أحد الجانبين .

(٢) نهنته : زجرته - النكل : حديدة اللجام .

شبهه بالإنسان الأحوال في عينه والشارب المسرع في سيره ، فرسم الأشخاص واستعار في لوحته من ملامح وجوههم وتعثرهم في الشرب ، فكان موفقاً مبدعاً أيما إبداع ؛ فهو قد أضاف إلى صور الفرس تشبيهات جديدة إذا ضمت إلى صور امرئ القيس خرجنا بمتحف في هذا الحيوان الجميل .

والمرقش الأصغر ، ربيعة بن سفيان ، كان من الشعراء الفرسان وكان يغدو إلى الصيد بفرس صافي اللون ، ضامر البطن أملس الجسم جميل الخلق ، أغرّ الجبهة ، محجل القوائم ، يصيد الشوارد ويقنص الأوابد ، يشاركه حربه وسلمه ، جدّه ووهو ، ذلول سلس العنان سهل القياد ، لكنه حين يثور تسمع له همهمة وزجرجة كظلية فتيّة قوية شديدة النشاط لا تهدأ ولا تسكن ، فهو سريع واسع الخطا حين يشدّ على العدو ويندفع اندفاع الأتّي ، فليس فيه عيب ولا يلحقه نقد ، لذلك كان موضع فخره واعتداده واعتزازه ، لا يسبق مطروداً ويلحق بخصمه طارداً ، ويخرج بصاحبه من كل ضيق ، وكذلك تكون الجياد .

والمرقش لا يقف عند أجزاء الجسم وقفة زملائه ، وإنما يصف فرسه بصورة عامة ، ويعدّد منافعه في لغة أقرب إلى السهولة من شعر أقرانه ، وأدخل في الموسيقى من معلقات أضرابه ، حين يقول :

على مثله آتى الندى مخايلاً وأغمز سرى أى امرئ أربح^(١)
ويسبق مطروداً ويلحق طارداً ويخرج من غم المضيق ويجرح^(٢)
ولن نعرض لشعر الجاهليين في وصف الفرس فهو كثير تجده في كتب الأدب والمختارات لا يخرج عن أوصاف هؤلاء الذين ذكرنا ، وربما أضافوا إليها وصف القوائم المحجلة ، وعوذوها بالرقى كما فعل سلمة الغطفاني ، أو جعلوها ذكية

(١) الندى : النادى - مخايلاً : مختالاً - أغمز : أشير .

(٢) مطروداً : يطرده فارس وراءه - طارداً : يطرد غيره أمامه - غم المضيق : شدة الأمر -

يجرح : يصيد .

الفؤاد متوقدة الإحساس شديدة الشعور ، فأعاروها من نفوسهم مشاعر الحزن والفرح ، والثورة أو الهدوء ، وذلك رسم لعواطفهم وخلجات أنفسهم ينعكس على ما يرسمون .

والخيل الجياد كانت عندهم — كما قلنا — للصيد والاهو والحرب والقتال ، وكانت زينة وموضع فخر ، لذلك رسموا شياتها وصوروا سماتها ، ووصفوا خلقها ونبيلها ، وكانت أوصافهم موضع بحوث اللغويين وأرباب المعاجم ، فجمعوا منها مادة غنية في مفردات اللغة لأوصاف الحيوان ، وكتبوا فيها مؤلفات واسعة ، يحسن الرجوع إليها للوقوف على عناية القوم بهذا الحيوان ، ومعرفة ما كانوا يصفون منه ، وموضع اهتمامهم بأجزاء الفرس ، ومبلغ إلتحاحهم في ذلك .

الأوبد

وأما الأوبد ، فقد وصفها شعراء الجاهلية كذلك فأمعنوا في تقريبها من أذهان السامعين ، وأهم أوصافها ما كان في شعر لبيد بن ربيعة ، والنابعة الذبياني ، وسويد اليشكري .

فأما ليبيد ، فهو يرسم ناقته فيشبهها بالبقرة الوحشية في قوتها وضراوتها ، ثم يستطرد كما يفعل غيره إلى بقرته ، فيقول إن السبع قتل ولدها حين كانت غائبة ترعى في القطيع ، فلما عادت رأت أن لا شيء يعوضها وليدها فتارت وهاجت ، وراحت تنوح وتبكي ، وهي ما تفتأ تذكر ذلك العزيز الذى طوته الأرض وغطاه التراب ، وتناثرت أشلاؤه . وزاد الشاعر في وصف الحزن فجعل الأمطار تشاركها في عبراتها وتبكي معها لبكائها ، وهكذا اجتمع على البقرة الحزن والبرد والمطر فلجأت إلى جذع شجرة نائية تقضى ليلها في جزع وفزع ، وظلت على ذلك ثمانية أيام حتى جف ضرعها .

وبالغ الشاعر في الجزع فتصور أنها سمعت صوتاً أفزعها ، وأنها عرفت أن

الصيادين في سبيلهم إليها ، وأنهم رسل المنية ، ووقفت تنتظر المعركة بقلب خافق ، فإذا بكلاب الصيد مسترخية الآذان مزينة بالقلائد في أعناقها قد هجمت عليها ، فوقفت لمن لتدودهن عن نفسها ، تستميت لتعيش ، فلما وثبت عليها كلبة من الكلاب ضربتها بقرنها فأدمتها وكان النصر .

وهذه الصورة الممتعة لم تعرض لأعضاء البقرة ، وإنما وصفت حزنها وشجاعته ودفاعها عن نفسها واسماتها في سبيل حياتها . فهو لم يقصد إلى وصفها وإنما عرض لرسمها كوسيلة لا غاية ، يصف الناقة ويقربها جملة من البقرة الوحشية ليقفنا على حزن الناقة في مظاهرها وقوتها وشجاعته ، فقرنها بالبقرة . وصورته بليغة في رسم وحشية الصيادين والبطولة الحارقة التي يمثلها هذا الحيوان في الدفاع عن نفسه .

وهذه الصورة على إيجازها وبساطتها تشبه صورة في الشعر الغربي الفرنسي رسمها ألفريد ده فيني لذئب أقبل عليه الصيادون في الليل وأرسلوا كلابهم إليه فأمسك بأجرأ كلب فيها ولم يحول عنه فكيه حتى فارق الكلب الحياة ؛ رغم الطلقات النارية والمدى الحادة التي كانت تمزق أحشاء الذئب . وليس من فرق بين الصورتين إلا في الفلسفة التي أضافها الغربي ، إذ امتدح نظرة الذئب إلى الحياة يتركها في شجاعة وصمت ، فهما كل العظمة وما سواهما جبن وخور ، ولإنسان أن يتخذ منها عبرة . وأما الشاعر العربي قبل اثني عشر قرناً فلم يفلسف قصيدته .

والنايعة الذيباني فعل مثل لبيد ، فرسم الثور الوحشى في مكان قليل الماء عديم الغذاء ، ووصفه ضامراً كالسيف ، قد اجتمع عليه كذلك البرد والخوف والحذر والجوع والظمأ ؛ فهو هلع خائف يتوقع صياداً يكتشف مكانه أو كلاباً تهاجمه . وقد وقعت الواقعة فهجمت عليه الكلاب وكانت معركة حامية طعن فيها الثور بطن الكلب فشقه وضرجه بالدم فأصبح كأنه سفود تركه الشرب على النار فاحمر واشتعل . وكان الكلب يعض قرن الثور ولكن من غير جدوى فقد مات

بعدها وهربت الكلاب يأساً وفزعاً لأنها لم تجد في الفريسة مطعماً ، فارتضت من الغنيمة بالإياب .

وقصة النابغة كقصة لييد تصف الحيوان المطارد خائفاً جزعاً ، فاستبسل واسمات فسلمت له الحياة . وقد استخدم النابغة ألواناً جديدة في وصف الثور ، فجعل قرن الثور يشك فريسته كالبيطار يضرب بالمبضع ليشفي من الداء : شك الفريضة بالمدرى فأنفذها شك المييطر إذ يشفي من العضد (١) كأنه ، خارجاً من جنب صفحته ، سفودُ شرب نسوهُ عند مفتأد (٢) فذكر الشارين حول النار والسفود يحترق فيها بعد أن نسوه ، وصور البيطار يعالج داء العضد ، وكل هذا من حياة البادية وألوانها .

وسويد اليشكري ، وصف الثور الوحشى ضافى الذيل أسيل الخدّ أسود الفخذين في حمرة تكسوهما جمالاً وتكسبهما رونقاً ، ورسمه حين يعرض له الصياد وكلابه ، فيولى عنها مدبراً ويجرى مسرعاً ، فتعجز عن لحاقه وتقعّد عن إدراكه لأنه ابن الصحراء وأخو المغازات ، وله أن يسخر من أعدائه وأن يشمت من الكلاب ؛ فالشاعر يرسم مطاردة الصيادين للثور يجرى أمامهم وهم يلحقون به .

وامرؤ القيس ، مثل سويد ، يشبه ناقته والرحل فوقها بالحمار الوحشى ، فيرسم هربه من كلاب الصيد تشدّ وراءه وهو يخلف في حربه سخاباً من الغبار يكسو الكلاب ثياب الذل والحيبة ، فتقعّد عن إدراكه ، وتنحدر إلى ظل أشجار الغضا يائسات من لحاقه لأنه كان يسابق الريح .

والشاعر يصف الحمار جائعاً ظامئاً طاوى الحشا ، خائفاً متوجساً وحنزراً

(١) شك : طعن - الفريضة : قطعة لحم من مرجع الكتف إلى الخاصرة - المدرى : القرن - المييطر : البيطار - العضد : داء يصيب العضد .
(٢) صفحة : جانب - سفود : حديدة يشوى عليها اللحم - الشرب : جماعة الشارين - المفتأد : موضع النار التي فيها الشواء .

مربصاً ، لم ينل من الطعام ما يمسك به الرمق ، فهو كالضبع إذ يهيل التراب
ليهيبه فراشاً لنومه ساعة الظهيرة ثم يغفو كالأسير المقيد .

والطريف في هذا الوصف أن الحمار الوحشى يتصور خاتمته وقد أدركته
الكلاب وأمسكت به فزقته تمزيقاً كما يمزق الغلمان ثياب الرهبان وهم يتبركون
بهم ويلتمسون منهم المغفرة :

✓ وأيقنَّ إنَّ لاقينهُ أنَّ يومه بذى الرمث إن ما وتنه يوم أنفس^(١)

✓ فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس^(٢)

وعلقمة الفحل ، يشبه ناقته بالظلم ، وهو ذكر النعام ، فيقول فيه إن
لونه أحر حتى لكأنه خضب بالحناء وقوامه قصيرة الشعر ، وفه ضيق رقيق
الشفتين ، أصم لا يسمع الأصوات ، وصدرة كعصا الأوتار فى تقوسه ، دقيق
الرأس والعنق ، ينشر جناحيه ويضمهما أبداً ، ويجتمع إلى فراخه الصغيرة ، وهم
بروك ، فكأنهم أصل النخيل يهيجه المطر وتسوقه الريح ، ويدفعه الهواء الملبد
بالغيوم ، فهو فى سير متواصل وسرعة لا تماثلها سرعة .

وعجيب أن نقع على هذا الوصف فى الجاهلية ، فهو شامل حافل ،
يصور الحيوان بين أولاده على مقربة من عرسه اللطيفة ، ويرسم ما يكون فى هذه
الأسرة الجميلة من تحاب وتواد ؛ ولسنا نرى قرب الشبه بين الظلم والناقاة إلا فى
الطيش وسرعة الجرى وخفة الجسم .

وهؤلاء الشعراء وصفوا ظواهر الأوبد ، وتطرقوا إلى وصف بعض الأعضاء ،
فعل مرد ذلك إلى أنهم كانوا يركبون فى صيدها والحصول عليها ليس غير ، فلم

(١) أيقن : الضمير عائد على الكلاب - ذو الرمث : مكان يكثر به شجر الرمث وهو
كالغضا ترعاه الإبل - ماوتنه : صابرته وجالده حتى الموت - يوم أنفس : يوم إرهاب الأنفس .
(٢) يأخذن : يعضضن - الساق : ما بين الكعب والركبة - النسا : عرق من الورك إلى الكعب
شبرق : مزق - المقدس : الرجل المطهر نفسه من الأدناس .

تكن لهم كما كانت الناقة والفرس يعيشون معها ويصبحون ويمسكون عليها ، وإنما كانوا يرونها فارة هاربة تعرض عنهم كأنها ما تريد اللقاء ، لما كان يقع منهم من عدوان عليها وسعى في اقتناصها وقتلها ، فهي دائماً جاحمة نافرة .

وكان العرب على ذلك ينظرون إلى هذه الأوبد نظرة الحب والإعجاب والرضا ، يريدون أن يحصلوا عليها وما كان ذلك بالهين ولا باليسير فكانوا يطاردونها بكلابهم ويسعون إليها بقسيهم ، وربما جروا مسافات شاسعة في سبيل ذلك يمرون بالماء والصحراء والنبث والسراب ، ويلقون عناء في لحاقها ؛ فإذا طاردها وقعت معركة فيها نضال وغبار ودماء ، تخرج منها في أكثر الأحيان منتصرة وتقع الكلاب دامية قتلى .

وهذا ما صوره الشعراء فحلفوا صوراً لهذه المعارك لا تقل روعة عن صور النياق والحياد في متحف الوصف الفني ، لو تعدد مصور أن ينقلها من اللفظ والقصيد إلى الريشة والقماش لفاقت كثيراً من لوحات المتاحف العالمية .



ولم يقف الشعراء عند هذه الحيوانات وإنما تطرقوا إلى غيرها فرسموا لها صوراً خالدة وهي تتعارك فيما بينها ، كما يتعارك الإنسان ؛ ورسوموا هذه الحروب التي كانت تشب بين العقاب والذئب أو بين العقاب والثعلب أو بين الصقر والقطاة . ووصفوا الذئب والغول والحية والثعبان والأسد . وسنعرض بعضه عرضاً سريعاً لننتهي منه إلى أن هؤلاء الشعراء الرسامين خانهم الحظ فحرمهم من مدارس الرسم فلم يمسكوا بالريشة ولم يقفوا أمام القماش ، ولم يغطوا أقلامهم من هذه الألوان وإنما نشئوا على الفطرة فرسموا كل ما رأوه بخيالهم ، فسال في قصيدهم وكان ذلك روعة في الفن لا تبدها روعة في شعر الأمم والأقوام لمثل عصرهم وثقافتهم .

رسم امرؤ القيس في إحدى قصائده فرسه وأراد أن يقرب الصورة وأن يجسمها في الأذهان فجعلها شبيهة بعقاب ، وراح يرسم العقاب في أعلى الجبال والقمم وقد لحت عن بعد ذئباً فانقضت من حلق ، وانحدرت إليه ، فهوت كما تهوى الدلو المثقلة بالماء قد انقطعت عراها فسقطت كجلمود الصخر ، وأرسلت مخالباً إليه وأنشبت أظفارها فيه ، فانسل الذئب من تحبها بعد أن نقب جنبه ، وأخذ يلجأ إلى الصخور ليختفي وراءها حيناً ، ويشير الغبار ليحجب عنه العقاب أحياناً ، ولكن المنية لم تخطئه ولم ينفعه التهرب فقضى !

وهذه الصورة الممتعة جاءت في متاحف الفن الغربي صورها الفنانون بالألوان فرسموا انقضاض العقاب على الذئب ، ولكنهم لم يوفقوا إلى هذا الكر والفر بين الحيوان المفترس والذئب الهارب ، لأن الصورة لا تتسع لمثل هذه الحركة ، ولم يبلغوا إلى هذه الحكمة التي أرسلها امرؤ القيس :

صبت عليه ولم تنصب من أمم إن الشقاء على الأشقين مصبوب^(١)
وهذا عبيد بن الأبرص يصف العقاب كذلك فوق رابية عالية قد بلغ اليأس منها لشدة الشيخوخة ووفرة الآلام والأحزان ، فإذا كان الصباح أبصرت ثعلباً يجرى في فلاة قاحلة ، فطارت إليه وأدركته فطرحته على الأرض وجثمت فوقه وقتلته ، وثقبته بمخالبا الحادة ، وأرسلت أظفارها تنقب في صفحته وهو في هلع شديد وجزع عظيم ، يصيح ويستغيث ولكن من غير جدوى .

وهي لوحة جميلة كذلك تصور الثعلب في خوفه ، والعقاب في انقضاضها عليه في شيخوختها ، ولكن هذه الصورة شبيهة بأختها لا تختلف عنها أيما اختلاف

(١) صبت عليه : اندفعت إليه - أمم : قرب

رويناها لتقرب بين الشاعرين ، لعلنا نصور الغاية التي وقف عندها الشعر الجاهلي في مثل هذه الألوان ، كصيد الصقر للقطاة عند زهير بن أبي سلمى وغيره

الذئب

وقد وصف الجاهليون الذئب كما وصفوا غيره من حيوان الفلاة ، فرسموه طريداً شريداً جائعاً يائساً بائساً ، وسنعرض هنا شاعرين صوراه فأحسنا ، هما :
الشنفرى والمرقس الأكبر .

أما الشنفرى فقد رأى فيه حيواناً تتقاذفه الفلوات وتهاداه المفاوز ، يهوى في الأودية والجبال باحثاً عن قوت ساعياً إلى طعام ، فيعوى بائساً وينوح هزيباً ، ولا يردد صده إلا إخوته الذئاب بيض الوجوه شيب الرؤوس ، مشقوقة الأفواه كشقوق العصا ، عابسات الملامح كريمة المنظر بشعة ، لأنها تعيش على الصدى وتتقوت بالسراب ، وتغضى على الجوع وتغض أجفانها على القذى .

والمرقس الأكبر ، يقص علينا أنه أوقد النار لشوائه فنزل به ضيف أطلس اللون أغبر ، فرمى إليه بقطعة من الشواء حياء لئلا يقال إنه بخيل على جلسه ، فعاد الذئب جذلان فرحاً يهز رأسه غبطة وسروراً كأنه بطل عاد من الميدان بنىء كثير ونصر كبير . وهذه الأبيات تصور نفسية العربي في الكرم والسخاء وحب الأحودة الطيبة وجميل السيرة ، ولكنه لم يصف الذئب في أعضائه أو أجزاء جسمه .

وهذان الشاعران وصفا الذئب في يأسه وبؤسه وجوعه وهزاله ، فجعلاه يبحث عن القوت والعيش على موائد الكرام .

• • •

ولسنا نتعرض بعد هذا إلى وصف الغول أو الحية أو الثعبان أو الأسد ،

فهم رسموا الخوف منها والذعر لمنظرها . ولكننا نحب أن نجمل الرأى فى وصفهم للحيوان ، فهم صوروا الأنيس والمستوحش ، فأجادوا فى رسم أعضاء الناقة والفرس وأحسنوا فى وصف ما يكون من الحمار الوحشى أو البقرة الوحشية أو الذئب والعقاب . وقد وصفوا الأنيس كذلك فى قوته وضخامة جسمه وتحمله المشاق وبلوغه إلى الغايات ، ورسموا المستوحش فى جوع وظمأ ويأس وفقر كأنهم يفرقون بين الحيوان الذى يعيش فى كنف الإنسان على عز ورعاية وحب ، وبين الحيوان الذى يعيش هرباً من الإنسان على خوف وذعر ورعب ، أو لكأنهم يجدون فى الأنيس صورة للرجل المترف والبطل المناضل والشجاع الفارس ، ويجادون فى المستوحش صورة للصعاليك واللصوص وقطاع الدروب .

ونلاحظ كذلك أنهم استخدموا فى تعبيرهم الألفاظ الجزلة والكلمات الضخمة عند ما وصفوا الحيوان ، فلما تغزلوا أو وصفوا أحاسيسهم وعواطفهم رقت تعابيرهم بعض الشيء ، وخفت وحشية الألفاظ — كما رأينا فى كتاب الغزل والرثاء ، وكما نرى بعد فى فن المديح إذ تشترك فى المعلقة الواحدة أو القصيدة عينها هذه المعانى جميعاً كأنها مجموعة من الأغراض والفنون تجمعها قافية واحدة . ونرى كذلك أنهم عمدوا فى وصف الحيوان إلى البحور الطويلة لعل الأبيات تتسع لمعانهم كاملة فيستقل كل بيت بالخطوط التى أراد الشاعر بيانها .

ولعلنا أطلنا فى عرض الوصف عند الجاهليين ، وذلك لأننا نعتقد أنه كان دغامة متينة للعصور التالية وأساساً عميقاً يبنى عليه الشعراء فى المستقبل شامخ مجدهم وعزهم ، يقلدونه ويأخذون منه على كسر الزمان والأحقاب .

الفصل الثاني

العصر الجاهلي

وصف الطبيعة الميثة

الأطلال - الصحراء - الليل - السحاب والمطر

قامت حياة العربي على الرحلة والانتقال سعياً وراء الكلاً وبحثاً عن الماء، يقيم حيث يرى الرزق، فيحل بجيمته وينصب أثافيه ويوقد النار ويعيش حتى ينضب هذا المورد فينتقل إلى غيره، ويعيش بذلك في مساس مع الطبيعة وتجاور مستمر، يرعى النجوم في أفلاكها، وينظر إلى السماء وكواكبها، ويراقب السحب والغيوم والرعد والبرق، يعبر الصحراء ويمر بالوهاد والتلول والنجاد والسواقي والمياه، فهو في صلة مع هذه الظواهر لا تنقطع، تقع عليها عيناه في الصباح والظهيرة والمساء والليل كأنه راصد فلكى أو جغرافى باحث ! . .

وليس غريباً أن يقع على آثار من حل قبله أو يمر بالأماكن التي نزل بها غيره، فيرى الأطلال والديار والدمن والأوطان بين نازح يرتحل ومنىخ يحط رحله، فتتازع الشاعر عواطف غريبة لهذه الصحراء والبادية والخباء والخيام، ويرى فيها موضوعات مختلفة، تحدثه الأحجار عن حب سلف أو معركة نشبت أو قوم لها أو غارات وقعت، فينطلق لسانه بما يلفه من مكان أو يطوف برأسه من حوادث الزمان، فيرسم الطبيعة ويصور ما تقلب عليها من حب وحرب وطعن وضرب وصيد وقنص .

وقد وصلت إلينا في الشعر الجاهلي أوصاف الأطلال والليل والسحاب والبرق
والغيث والصحراء سنعرض لها في إيجاز كذلك، لنتبين أين مكان القوم من هذه
الصناعة أو هذا الفن .

الأطلال

عرض امرؤ القيس في معلقته إلى هذه الأطلال فوصف رسوم الديار وقد
تقلبت عليها الرياح السافيات ، ورسم بعر الآرام تملأ العرصات صغيرة كحب
الفلفل ، فبكى لرحيل القوم وزفر في أسى ، ولكن الدموع لا ترد الأحبة والأسى
لا يقرب البعيد .

وعرض زهير بن أبي سلمى إليها كذلك فرآها قد انمحت ودرست ، وصارت
بعد أن هبت الريح وجرى السيل كبقية الوشم في عروق المعصم ، وقد أصبحت
هذه الأطلال موطناً للآرام ومرتعاً لبقر الوحش ينتقلن فيها من مكان إلى مكان ،
ولم يبق من أثر الحبيبة وأهلها إلا هذه الأحجار السوداء وقد تقلبت عليها النار
فاختلطت حرمتها بالسواد ، فأين دارها بعد عشرين عاماً ، وأين كانت تميز
وتختال ! لقد حملت الريح كل شيء ولم يبق في ذاكرة زهير إلا صورتها البعيدة
تعيش في خياله .

وأما لبيد بن ربيعة فقد وصف الأطلال كزميليه ، فرأى أن حججاً كثيرة
تقلبت عليها فأصبحت مرعى الظباء والنعام والبقر الوحشى ، وغدت مرتع
الأوبد بعد أن كانت موطن الجمال والحب والفتنة ، وقد تعاقبت الرياح والسيول
على هذه الأطلال فكشفت عن آثارها القديمة ، فغدت كأنها كتب تقادم عهد
كتابتها فجدد الكاتب سطورها ، أو كأنها وشم ذهب أثره في اليد فأعادت المرأة
شكله بالكحل تدره عليه . وما بدت هذه الديار واضحة المعالم حتى وقف الشاعر .
يتخيل الأحبة وقد عادوا مع الربوع واستوطنوا بعد غيبة ، فناجهم وساءل الرسوم

عنهم ، ولكن لا جواب ولا حديث ، وإنما الوجد والهوى يخيل معهما للعاقل ما لم
يقع ، فكأن اللب قد سلب أو كأن العقل قد شرد .

والنابغة الذبياني ، نظر إلى الأطلال فتصور مجالس الحيوان ومعالقه والخدام ،
قد خلت السبيل للماء المنهمر يغمر الدار ويبلغ إلى الأثاث ، فقد خلت من
أصحابها وأخنى عليها الدهر .

والمرقش الأكبر ، رأى الدار خالية مقفرة ، احتمل أهلها ليلاً لأنهن
منعمات لا يحتملن سفر النهار ، فالشمس شديدة على أجسادهن المترفة ، فعمر
الوحش المكان وسكنته البقر ترعى العشب وتمرع في الأرض كأنها رجال من
العجم يختالون في قلائسهم .

والحارث بن حلزة اليشكري ، أرسل أسفه حسرة حين رأى الديار خالية
من أوانسها الفاتنات ، قد عمرتها قطعان البقر الوحشي بيضاء الظهور تبدو كأشعة
الشمس في سطوعها ، وسكنتها الجياد فتركت فيها آثار وطئها ومواضع ركضها .

وثعلبة بن عمرو العبدى ، مغمور في الشعراء ، ولكنه ترك وصفاً رائعاً
للديار الخالية ، يتلخص في أن فعل الحدثان وتعاقب الغيوث على الأرض تشبه
فعل الأصباغ في زخارف البيوت ، أو تشبه رسم الكاتب يخلف رسوماً دقيقة
وأشكالاً منمقة بدواته ، وهو يرفع يده ويضعها في هدوء وسكون لا تطرف عينه
ولا يتحرك جفنه ، كأنه مأخوذ بما يصنع من رسم وتعبير . وهذه صورة موفقة لم يقع
عليها الشعراء المشهورون .

وخلاصة القول في هؤلاء الوصافين أنهم اتفقوا في رحيل القطان عن الأوطان ،
واتفقوا في الحيوان الذي حل بالمكان ، ولكنهم اختلفوا في رسم الأرض وقد
تناوبت عليها الرياح والأمطار ، فأصبحت في نظر بعضهم كباقي ظاهر الوشم في اليد
أو اختلاط الأصباغ بالأصباغ على يد فنان رسام أو كاتب ملهم ، وكلهم

ذكر حياة الأحبة قبل الرحيل فتصور النعيم والترف ، وتصور الأثاث ومراكض
الحب ومرايح الحب .

الصحراء

رأى الأعشى أن الصحراء أشبه بظهر الترس في استوائها ، وأنها مقفرة
موحشة فما يسكنها إلا الجن يمرحون فيها ويصخبون خلال الليل حين يلف السكون
عالم الصحراء ويخيم الظلام ، فهي وطنهم ومرتعهم ومحل عبثهم وذنيابهم . فإذا
أشرق النهار وعمت الشمس بعد ذلك أرجاء الكون اشتد القيظ والهجير
فما يطيقه إلا الفرسان الشجعان والأبطال الغطاريق ، فهم يقطعون الصحراء
ويقتحمون الأهوال والمخاطر .

والمركب الأكبر يصنفها سوداء لبعدها عهدتها بالنبات وحرمانها من الماء ، فالإبل
تسير في ضنك وإرهاق متعبة مكدودة ، والعابرون يصيبهم النعاس لخمود
الطبيعة وسكونها وشدة ما يكتنفها من ظلام .

وسويد بن أبي كاهل ، يصف الفلاة كأنها رأس أصلع فيه بقايا من
الشعر ، ويرسم السراب يسبح في البیداء ويرقص على الجبال فهي مخوفة هائلة .

الليل

تخيل امرؤ القيس أن الليل حين يرخى ستائره على الكون شبيه بالبحر
حين يغمر السابحين ، وأن نجومه المتلألئة كأنها مربوطة بأمراس شديدة الفتل إلى
رأس جبل لا تريم ولا تتحرك ، ثابتة ، ثقيلة الوطاء على الساهر الخزون . والشاعر
يجد في الليل موضعاً للفخر ، كأن الليل يبلو قوته وشجاعته .

والنابغة الذبياني ، يحسب الليل أبدياً لبطئته وطوله ، كأنه مقيم لا يرتحل ،
أو كأن الراعي الذي يسوق النجوم إلى غايتها قد نسي قطيعه وسافر فما يعود ! .

ومهلهل بن ربيعة ، أصابه الهم فطال سهره ، وجفاه النوم ، فكأن النجوم واقفة ، أو كأن كوكب الجوزاء كنياف تجمعت حول وليدها وفصيلها المكسور فلا تبرح مكانها ، أو كأن الفرقددين يدا رجل مقامر بغيص لا تقفان عن الحركة حول القمار ولا تتجاوزانه .

وهؤلاء الشعراء اتفقوا في أن النجوم ثابتة بطيئة أبدية لا تتحرك ، ولكن أحدهم شبهها مربوطة بالحبل ، وآخر جعلها كالقطيع نسيه صاحبه ، والثالث شبهها بالنياف المتجمعة النائحة أو المقامر المأخوذ باللعب .

السحاب والمطر

ويرى امرؤ القيس أن المطر حين ينسكب يملأ الأرض ويغمرها فيخنى أوتاد الخيم ويغطي الأشجار فما تبدو منها إلا رء وسها يعلوها الزبد ، فيخيل إلى الرائي أنها رعوس مفصولة عن أعناقها تسبح في الماء . ووصف الأعشى البرق يلتمع ثم يخبو ، فرأى أنه كشعلة تومض وتنظفي أو شرارة تبدو وتختفي ، والسحاب العارض ظلمات متراكمة تسح وتنسكب فتملاً المياه كل مكان ، وتجاوز الحد فتبلغ الأمكنة العالية والكثبان المنتشرة .

وأما عبيد بن الأبرص ، فيرى أن البرق يضئ كالصبح في لمعانه ، وأن السحاب يدنو من الأرض حتى ليحسب الإنسان أنه يمس خطوطه بيديه أو يدفعه بكفيه :

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه في عارض كمضئ الصبح لماح^(١)
دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يمسكه من قام بالراح^(٢)
وليس في هذه الصور للسحاب والمطر كبير غناء إذا استثنينا وصف امرئ القيس

(١) العارض : السحاب الذي يعترض في الأفق - لماح : لماع .

(٢) دان : قريب - مسف : مار على وجه الأرض - هيدبه : خيوطه - الراح : الكف .

للرؤوس المفصولة ، فكلها تشير إلى هذا السيل المتدفق الذي يغمر الأرض
ويعملها الأمكنة. (وقد وصف الجاهليون ما يصيبهم من برد أو حر ، ورسموا أثر
الأمطار في الرياض حتى يضحك الزهر وينبع الثمر ويفوح العطر ويغرد الذباب ،
وعنترة العيسى يشبه الذباب بالشارب التمل حين يتغنى في سروره ومرحه)
وخلاصة القول في شعر الوصف عند الجاهليين أنه قائم بصور حياتهم
الحزينة ورسومهم الكئيبة وديارهم المقفرة ، تعمرها الأوابد والوحوش ، وحين تصيبهم
الأمطار تكسب السماء عبوساً والبيوت اضطراباً . وذلك لاضطراب عيشهم وشدة
تنقلهم وضربهم في أطراف الأرض وراء الرزق ، فلا قرار ولا هدوء كأنهم
يكتنون بالشمس ويرزعون بالرمل والأنواء فتغدو حياتهم كالجحيم ، ولذلك
كانوا يحلمون بالنعيم وبالجنان ، وبالهدوء والشراب السائغ والوسائد الناعمة ونوم
الضحى ، ويرون فيها مثلاً أعلى لآمالهم .

الفصل الثالث

العصر الجاهلي

وصف الخمر والسقاة

الأعشى — عمرو بن كلثوم — علقمة — الأسود النهشلي — عدى بن زيد رأينا أن العربي كان في حياته الجاهلية على صراع دائم ونضال مستمر ، طوراً يقف للطبيعة القاسية ، وطوراً للعدو الغازي والمحارب المنتقم ، فكأن أيامه كما يصورها شعر الجاهليين كانت حزينة في أكثر الأحيان . ولا بد لدفع هذا الحزن في نظره من شراب ينسيه وخمر تعزیه فيسلو الآلام وينتعش للآمال . ولعله شرب الخمر ليستقبل الموت أو يستلهم النشاط ، فهو يعتقد أن العمر قصير وأن الفناء قريب منه يفجؤه في كل حين ؛ تعدو عليه الطبيعة أو يسطو عليه العدو .

ولسنا نملك التحقيق في أولية الشعر الجاهلي أو صحته لنعرف أول من شرب وأول من وصف الشرب ، ولكننا نستطيع أن نقبل أن الشعر الذي بلغ إلينا يمثل ما قاله الشعراء الجاهليون في مبادئه وأسسهِ — كما يقول العلماء اليوم — فنتخذهُ وسيلة إلى دراسة هذا الوصف في الخمر والسقاة ، كما اتخذنا وصف الحيوان والطبيعة .

وقد أتانا أن أحسن الوصافين للخمر في الجاهلية هو الأعشى وأنه كان زعيم المدمنين وسيد الشاربين ، أطال صحبة الشراب وعرف ما يتقلب عليه من ألوان وصفات ، فجاء بصورة جميلة كانت موضع التقدير والتقليد خلال عصورنا الأدبية كلها في قصيدته المشهورة :

- فقمنا ولما يصح ديكنا إلى جونة عند حدادها (١)
 تنخلها من بكار القطاف أزيرق آمن أكسادها (٢)
 فقلنا له : هذه هاتها بأدماء في حبل مقتادها (٣)
 فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها (٤)
 كميئاً تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزبادها (٥)
 فجال علينا بأبريقه مخضب كفت بفرصادها (٦)

فهو سينطلق قبل أن يصحو النيام ويصبح الديك مؤذناً بالفجر ، ويقصد خابية مترعة يحفظها خمار حريص تخير كرمها ، وجناها رجل روى خبير بصناعته مطمئن إلى بيعها ورواجها ، فيطلب إليه أن يترع الأباريق وأن يدفع له ثمنها ناقة أدماء ، فقام الخمار وصب قهوة تهدئ النفوس بعد ثورتها ، فكانت في لون الحمرة القانية حين تصفو رغوتها ويزول زبدها . وجال بها الساقى فطاف علينا بكؤوسه وهو مخضب الكف ، فشربنا حتى خارت القوى وسكن الجسم .
 ويقص الأعشى بعدها ما وقع لزميله من شدة الشرب خلال النهار كله ووهناً من الليل ، في أسلوب رقيق ومشاهد متعاقبة حية ، تنبض بالنشاط وتضج بالحركة ، وقد نقل إلينا ما دار من حوار خلال ذلك :

-
- (١) ديكنا : ديك الفجر - الجونة : الحامية المطلية التي توضع فيها الخمر - حدادها : خمارها ، سمي كذلك لحفظه إياها .
 (٢) تنخلها : تخيرها - بكار القطاف - مباركة القطف والحنى - أزيرق : تصغير أزيق وهو صاحبها ويكنى به الرومي لأنه أزرق العينين - إكسادها : بوارها .
 (٣) أدماء : ناقة يخالط بياضها سمرة - مقتادها : صاحب قيادها .
 (٤) قهوة : خمر - تسكننا : تهدئنا - إرعادها : يقصد إزبادها وفورانها .
 (٥) كيت : خمر يغطي حمرتها سواد - صرحت : صفت - إزبادها : فورانها وانتشار الحبب فوقها .
 (٦) مخضب كفت : مصبوغ الكف بمخضاب الحناء - فرصاد : صيغ أحر ، ويطلق على التوت الأحمر .

- فقال : تزيدوننى تسعة وليست بعدل لأندادها (١)
 فقلت : لمنصفنا : أعطه فلما رأى حرص شهادها (٢)
 أضاء مظلمته بالسرا ج ، والليل غامر جدادها (٣)

وهذا وصف لطيف للشرب فى البادية ، وأحاديث تقع خلال ذلك على الزمن ، سبق إليها الأعشى والفضل للمتقدم .

وأما خر عمرو بن كلثوم فهى صفراء من خر « أندرين » مزجت بالماء الحار كما يفعل الروم فى بلادهم ، فأنعشت الشارب ورققت الطباع وأحالت الرجل الضيق سمحاً ليناً ، والرجل الشحيح سخياً كريماً :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا (٤)

وعلقمة الفحل ، يطلبها معتقة معصورة من العنب كغيره ، ولكنه يجد أنها تشفى الصداع وتزيل الدوار ، ولا يصيب الرأس منها وجع ، ذلك لأنها من « عانة » قد لبثت فى دنها سنة كاملة . وساقى علقمة رومى كذلك يغطى فمه عند السقى بشيء من الكتان على عادة الأعاجم ، وأما إبريقه فيشبه ظبياً وقف على محل مرتفع قد لف بالكتان وكسر أنفه .

وقد أضاف الشاعر بهذا صورة للروم السقاة حين يغطون أفواههم بالكتان ولعل ذلك لئلا يشاركوا الشرب فى استنشاق عبيرها أو يفسدوا رائحتها بأنفاسهم ، كما يفعل الأطباء اليوم عند ما يحذرون خطر أنفاسهم على المريض ، فالخمر دواء فى رأى هؤلاء الشعراء ، يتناوله المرضى فى سبيل الصحة والقوة والعافية ، وليس للساقى أن يفسد الدواء :

(١) أى تسعة أباريق - عدل : معادلة - أنداد : نظراء .

(٢) المنصف : الساقى والخادم .

(٣) مظلة : خيمة - غامر : شامل - الجداد : الأهداب .

(٤) تجور : تميل - ذو اللبانة : صاحب الحاجة .

تشفى الصداع ولا يؤذيك صالبا ولا يخالطها في الرأس تدويم^(١)
 والأسود بن يعفر النهشلي ، يصف السلافة وقد مزجت بماء الأمطار
 ويصور الساق ، يلبس في خصره منطقة ، ويحمل في أذنيه أقراطاً . وفي صوته
 غنة جميلة ، وفي أنامله حمرة الفرصاد . ثم يرسم المجلس وقد طافت بالشرب غايات
 كالدمى من رخام في جملهن أو كالبدن في بياضهن ، نواعم يمشن بالأقداح الجميلة
 فيرمين القلوب بالمحاجر ، ويسقين بأحاديثهن وأقوالهن فيسكر القوم بخمر العيون
 وخمر الكؤوس وفتنة الأحاديث .

وهذا مجلس من مجالس الشراب لا يبذه مجلس للعباسيين ، ففيه ساق
 جميل وفتيات نواعم سواحر . ولعل هذا هو الذي أذهل الشاعر عن وصف
 الخمر وعتقها وجمال الكأس وصورتها وحوار الشرب وأحاديثهم ، فكأن السكر
 يكون بالعيون والألفاظ لا بالكؤوس والشراب .

وعدى بن زيد ، أقبل على الشراب كذلك ووصفه ، فصور الساقية قينة
 في يمينها إبريق الخمر قد صفته بالمصفاة ، ثم وصف الخمر سلافاً كعين الديك
 فزجه بالماء ولذ طعمه ، ونظر إليه وقد علت سطحه فقاقيع حمراء كالباقوت
 فأحبه ، ووصفه بأسلوب لطيف قال فيه :

بكر العاذلون في وضوح الصبغ ح يقولون لى : أما تستنيق ؟
 ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق^(٢)
 فدمته على عقار كعين الد يك صنى سلافها الراوق^(٣)
 مرة قبل مزجها فإذا ما مزجت لذ طعمها من يدوق

(١) الصداع والصاب : وجع الرأس - التدويم : الدوران .

(٢) الصبوح : الخمر تشرب في الصباح .

(٣) فدمته : صفتته بالفدام وهو مصفاة توضع فوق الإناء ليصنى ما فيه - العقار : الخمر -

السلاف : خالص الشراب وأوله - الراوق : المصفاة .

وطفا فوقها فقايع كاليا قوت حمر يزيناها التصفيق (١)
ثم كان المزاج ماء سحاب لا صدى آجن ولا مطروق (٢)
وهكذا شرب الجاهليون خمرهم في الصباح عند الفجر ، واختاروا الحمرة لوناً لها ، وأحبوها معتقة ، وفضلوا أن يكون الساقى جميلاً في وجهه عذباً في صوته ، وأن يكون على لباس خاص ، وأن تحيط الغانيات بمجلس الشراب . وبذلك عرفنا ما كانوا يرغبون من لونها وتصفيقها ، وما كانوا يحبون من جنسية ساقياها ولباسه ، وشهدنا من عاداتهم في تقليد الفرس والروم في ذلك ، وأنها تكلفهم ثمناً غالياً ، فلعلها وسيلة للمدح والفخر والاعتزاز للثراء والنبيل والفتوة . ولا بد كذلك أن يكون في الشعراء من لم يستطع الإكثار منها ولكنه جارى غيره في وصفها وأسهم في نعتها ، ليقال فيه ما يقال في السرى النبيل ، وشأنهم في ذلك شأن من يقول في الغزل وهو لا يشعر بالحب ولا يكتوى بالبعد .

(١) التصفيق : نقل الشراب من إناء إلى آخر ليصفو .

(٢) صدى : متغير - آجن : راكد وفاسد - مطروق : مباح للناس .

الفصل الرابع

العصر الجاهلي

وصف السلاح والحرب

الرمح - السيف - القوس - الدرع - المعركة

السلاح

لا بد من السلاح في حياة البادية ، فهي غزو أو صيد ، يدافع به العربي عن نفسه ضد عدوه من الإنسان أو الحيوان . وكان هذا السلاح معدوداً ينحصر في السيف والرمح والقوس والدرع والسهم والنبل ؛ وهي من حديد أو شجر . وقد تعاقب الشعراء على وصفها واعتزوا بها ، فهي عدة الشجاعة والفخر ، وسيلة المديح والقوة . وقد عنى العرب بها عناية عظيمة فأطلقوا عليها الأسماء وأكثروا في ذلك ، حتى كانت لهم فيها كتب كثيرة تضم ثروة عظيمة من مفردات ، وكان من وراء هذه الكتب معاجم غنية واسعة .

وأوس بن حجر ، هو أحسن الشعراء وصفاً لها فيما ترى كتب الأدب ، فقد انصرف إلى الشجاعة والبطولة ، ورسم سلاحه كله في قصيدة طويلة ، سنعرض لمعانها في شيء من الإيجاز لنبلغ أولى صورته ورسومه قال :

لقد أعددت للحرب بعد ما كشر نابها رمحاً صلباً كأن كعوبه نوى التمر في

النعومة والملاسة صنعته رديئة فأحسن صنعاً ، فهو يلتمع في نصله كما يضيء مصباح الملوك في يوم عيد .

وأعددت درعاً ملساء أنفق ناصبها عاماً كاملاً في صنعها ، تشبه الغدير في تواجده حين تعبت به الريح ويداعبه النسيم ، فتلتمع كأن أشعة الشمس قد صادفت مستشرفاً من نبت صغير منفرد .

وأعددت كذلك سيفاً مهنداً كأن حده برق تلاً في وسط سحاب ، إذا سل من غمده اشتد لمعان جوهره كما يلتمع إناء الشرب وقد صنع من بلجين ، فكأنه في التماع صفحته ديبب نمل صاعد وآخر نازل .

وجهزت قوساً صنعت من فرع شجرة نبتت في جبل مجلل بالسحاب على ظهر صخر أصم فاكتسب صلابته من الصخر ، قطفه صاحبه في عناء كبير ، وخاطر في سبيل الوصول إليه ، لأنه من العود النادر في صلابته ومنعته ، فإذا بلغه قطفه ، وأمر شفرته عليه وأرسل سكينه فصقلها وجردّها صفراء لا يعيها قصر ولا طول . فإذا تناول الرامي هذه القوس وأنبض الوتر سمع صوتاً حنوناً ، وإذا شد السهم ذهبت بعيداً .

والكنانة التي أعدها ، حشاها بالسهم من فروع الأشجار الغريبة ، وقد تأنق فيها صانعوها وتمهلوا في صقلها ، فركبت فيها النصال حمراً كجمر الغضا في يوم ريح ، فلما تمت كساهن ريشاً من بلاد اليمن أغبر يميل إلى السواد .

هذه عدة الشاعر : رمح ودرع وسيف وقوس وكنانة ، وصفها الشاعر في قصيدة واحدة وصفاً دقيقاً ، وذكر منبتها ومنشأها وقصة صنعها وأوغل في التفصيل حتى لم يترك قولاً لقائل . وقد أسهب في قوسه فخصها بثمانية عشر بيتاً لأنها كانت أحب سلاحه إليه .

والشماخ بن ضرار وصف قوسه وخص بها كثيراً من الأبيات ، قص فيها ما قام به القواس في تحسس الأشجار والبحث عن صلابتها ومثانتها والتعرف إلى

جذرها حتى إذا وقع على ضالته تناولها بالفأس ، ولبث عامين كاملين يثقفها ويقومها ؛ فإذا جاء الموسم أقبل بقوسه فخوراً مزهواً فباعها وهو داعم العين ، وأما الشاري فقد اختبرها فرأى أن وترها يترنم كترنم الثكلى ، وأنها تصوت حين يخترق سهمها جسد الظبي ، فلا مهرب له منها ولا تنجيه قوائمه من سلطانها .

والشماخ مثل أوس في معاني قوسه ، اختار الشجر واصطفى القاطف ، ووصف ما بذل من الجهد في سبيلها . وقد سار كثير من الشعراء الجاهليين على سنن أوس ، فجمع راشد اليشكري في قصيدته وصف السيف المشرف القاطع ، والقوس ذى الصوت الحنون ، والرمح الأسمر الصلب ، والدرع المضاعفة النسج ، وفعل مثله ثعلبة العبدي فجمع في قصيدته وصف الدرع والرمح والقوس والسيف .

الحرب :

وكثرت الحرب بين العرب فاعتبروها وسيلة من وسائل الرزق فيها الغارة والسلب والثأر ، بل فخروا بها وتمدحوا بشجاعتهم فيها ، فهي شارة القوة ودليل البأس ، وقد خلق الرجال لحوض غمارها ، فكانت تأكل منهم وتهب من قوتهم وتضعف من نسلهم ، ولذلك سعوا إلى كثرة الأولاد ليعوضوا على القبيلة شبانها وفرسانها ، وهكذا شغلت شعراءهم فوصفوها ورسموا ما دار فيها من طعان ونزال ، وصوروا الخيول والأسلحة وما يقع من أصوات خلال المعركة ، وما تنتج من ضحايا ، ونظر كل منهم إليها نظرة خاصة .

وتروى كتب الأدب أن دريد بن الصمة أكثر الفرسان غزواً وأبعدهم أثراً وأكثرهم ظفراً ، وقد قتل يوم حنين ، فعاش فارساً ومات فارساً ، وقد وصفها وهو يحامى عن أخيه عبد الله قال : أقبلتُ على أخي والرماح تنوشه من كل حذب كما تقع الشوكات في الثوب المنسوج ، فكنتُ كالناقة تقبل على ولدها الذبيح تشم ، وتتحمسه . فلما دخلتُ الميدان تناولتني الرماح وشققت جلدي ، ولكنني صابرتُ وطاعنت الخيل عن جثته حتى تفرقت جموعهم ، والمرء لا بد فان ، فعلام الخوف ؟

فطاعنتُ عنه الخيل حتى تنفست وحتى علاني حالك اللون أسود^(١)
 قتال امرئ آسى أخاه بنفسه ويعلم أن المرء غير مخلد^(٢)
 وهكذا وصف غبار المعركة حوله وصور الخيل متألمة عليه ولكنه ناضل حتى
 انتصر .

واشتهر عنتر العبيسي في أساطير البطولة حتى ألصق به شعر كثير ، وقد
 نقل إلينا في ديوانه أنه وصف فرقة كثيفة هاجم بها فرقة أخرى ، وصور الرياح
 المتساقطة والقنا المتهاوية كأنها شهب تتساقط فتشير الظلام ، والخيل الضوامر تعدو
 عوابس بفوارسها المدججة بالسلاح ، وقد خف الحلم وثبت الفرسان للنزال .
 ونقل إلينا في شعره كذلك أنه حمل بمهره على قلب الكتيبة المعادية فزقها ،
 وما زال يناضل حتى اصطبغت الخيول الدهم بالحمرة من دماء الفرسان ، وكأنها
 تتعثر في مستنقعات الدماء ، وعاد منتصراً يحمل رأس عظيم الكتيبة ، وخلف
 الأعداء كالنياق المذبوحة طعمة للجوارح :

حتى رأيت الخيل بعد سوادها حمر الجلود خضبن من جرحاها
 يعثرن في نقع النجيع جوافلاً^(٣) ويطنان ، من حمى الوغى صرعاها^(٤)
 فرجعتُ محموداً برأس عظيمها وتركتها جزراً لمن ناواها^(٤)
 وقد صور شعراء آخرون حروبيهم ضد القبائل ، فرسموا قوة الخيل وسرعة عدوها
 حتى لكأنها تبارى الحمر الوحشية وتقتحم الهبيعاء ، وحتى كأن أسنتها حبال^(٥)
 يمتح بها ماء البئر لشدة طولها وإدراكها الغاية . وصور بعضهم الحرب كزهير بن
 أبي سلمى في سوءاتها وويلاتها ، فهي كرية ، وهي كالنار تأتي على المشيم ، وهي

(١) تنفست : تفرقت - حالك اللون : يقصد به الغبار الكثيف من وقع الحوافر حوله .

(٢) آسى : سوى - مخلد : خالد .

(٣) النجيع : الدم الأسود المتجمد - حمى الوغى : شدة الحرب .

(٤) جزر : ج جزور ، وهي الناقة تجزر - ناواها : ناوأها وعاداها .

كالرحى تطحن كل شيء ، وكاناقة تلد أشأم الغلمان . وجعلها امرؤ القيس
عجوزاً ليس لها خليل ، وشمطاء دميمة قبيحة قد جزت شعرها وتنكرت فهي بغیضة
لا يقربها لاثم أو محب .

وكثيرة هي أشعار العرب في الحروب ، وصل إلينا بعضها ، وضاع كثير
منها مثل : حرب داحس والغبراء ، والبسوس . والذي بقي يدل على ما ضاع ، فقد
انتثر في معلقات الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وقصائد الأخنس التغلبي
والحارث المرى وعامر بن الطفيل ؛ وملاً صفحات التاريخ والأدب ؛ وهو سفر
ضخم في البطولة لو سعينا إلى تحقيقه وجلائه ودراسته لكانت لنا صور تبذ
الملاحم اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، كالإلياذة والإنيافة والشاهنامه
والمهابهارتا في دقة الوصف وعمق الخيال .

وكلها تصور هذه الحياة الحزينة المشابهة من غير تكلف أو صنعة ،
فإذا ابتسمت حيناً كانت صورة الأمل الذي خالغ قلب الشاعر ، وبارقة الحلم التي
راودت خياله إلى حين .

الفصل الخامس

الوصف في العصر الأموي

الأخطل - الفرزدق - جرير - العجاج -

رؤبة بن العجاج - الراعي - ذو الرمة

دخل العرب في طور جديد حين ظهر الإسلام، فأصبحوا يقاتلون من أجل الدين في جيوش كبيرة، وكانت لهم وقائع ومعارك ضاعت أوصافها أو وقفوا دون رسمها لحدة الموضوع وخطورة المقال، فنحن لم ننع على شيء فيها فحرمنا هذه الثروة. ولما كان عصر بني أمية ظهر الشعراء في العراق وانتقلوا إلى الشام، ولكنهم ظلوا على الأوصاف القديمة الجاهلية، فركب الأخطل ناقته وشبهها بالثور الوحشي أو بحمار الوحش، ووصف المعركة بين الثور وكلاب الصيد كما فعل الجاهليون قبله، لذلك ألحقه بعض النقاد بالشعراء في الجاهلية.

وجهد الفرزدق عند القديم البدوي من الألفاظ والصور، فوقف على الأطلال

كما وقف امرؤ القيس حتى لكانه سرق عباراته حين يقول :

وقوفاً بها صحبي على وإنما عرفتُ رسوم الدار بعد توهم

يقولون : لا تهلك أسي ولقد بدت لهم عبارات المستهام المتيم

فقلت لهم : لا تعذلوني فإنها منازل كانت من نوار بمعلم

فهو لا يحس إحساس القدماء ولكنه يقلدهم في قصيدهم ويتصنع الشوق إلى

ديار الأحبة، على أنه في مفرداته يبدو أقل غرابة وأخف إمعاناً في القديم منهم،

فقد وصف الذئب وقال :

وليلة بتنا بالغريين ضافنا
 تلمسنا حتى أتاننا ولم يزل
 ولو أنه إذ جاءنا كان دائماً
 ولكن تنحى جنبه بعد ما دنا
 فقاسمته نصفين بيني وبينه
 بقية زادي ، والركائب نعس
 ونحن حين نوازن بين هذا وبين ما قاله المرقش الأكبر نجده يحذو حذوه
 ويتبع خطوه ، فذاك يوقد النار ويشوى للذئب ، وهذا يقاسمه الزاد . على أن
 المرقش وصف الذئب بعدها فرحاً جلدان يهز رأسه غبطة لهذا الذي أصابه ،
 والفرزدق يجد فيه وسيلة لامتداح كرمه فحسب ، لا يلم بالذئب إلا في قوله :
 ممشوق الذراعين أطلس ، ولا يرهبنا وصفه له ، كأنه كلب أو قط أو أى حيوان
 آخر . وحين نقفه إلى جانب الشنفرى نجد الشاعر الجاهلى قد وصف الذئب
 فأدخل الرعب في قلوبنا ، وصور اللون والملاحم والقسمات ، ولم يدعه إليه ولم
 يقاسمه زاده .

والفرزدق وصف الذئب ثانية فقاسمه الزاد ووقف منه موقف الحذر ،
 وعاهده عهداً لا يخونه ، ونحب أن نروى هذه الأبيات شاهداً على الوصف عنده :
 وأطلس عسال وما كان صاحباً
 دعوت بنارى موهنأ فأتانى
 فلما دنا قلت : ادن دونك إننى
 وإياك فى زادى لمشتركان
 فبت أسوى الزاد بينى وبينه
 على ضوء نار مرة ودخان
 فقلت له لما تكشر ضاحكاً
 وقائم سيني من يدي بمكان :
 تعش فإن واثقتنى لا تخوننى
 نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
 وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما
 أخيين كانا أرضعا بلبان
 ولو غيرنا نبهت تلمس القرى
 أذاك بسهم أو شبة سنان
 والغريب أن الفرزدق وضع فى لفظه وابتعد عن الإغراب فى مفرداته ، وهو

يقصص حكاية الذئب ، وأعل ذلك كل ما يحمد له هؤلاء النقاد الذين يريدون سهولة التعبير في العصر الأموي ، ولكنهم معنا في أنه لم يصنع شيئاً في الوصف كما صنع الأجداد .

وجريير بن عطية ، لا يختلف عن زميله في الوصف ، فقد وقف كذلك على الأطلال ، ووصف رحيل الأحبة وبكى الظعن ، ولكنه كان صورة للقدماء . ويفسر النقاد هذه الظاهرة بأن الأمويين وجدوا في الشعر الجاهلي تمثيلاً لماضيهم فأصبحوا يعتزون به ويشتدون في روايته ومن ثم يسعون إلى تقليده ، وبعضهم يذهب إلى أن حياة البداوة الماضية هي التي ساقته إليهم النصر وملكهم زمام الفرس والروم ، لذلك تمسكوا بأهدابها وحنوا إليها ، وساعد على ذلك نهوض الرواة وعلماء اللغة إلى البحث عن هذا الماضي الجاهلي وعناية الخلفاء به وحبهم له ، فجهد الشعراء الأمويون في أن يقلدوه إرضاء للعلماء والخلفاء ومن بيدهم سلطان الذوق الأدبي ، ومن ثم كان الجمود والوقوف عند معاني الجاهليين حيناً ، والتمسك بالفاظهم حيناً آخر ، فعادت الحياة الجاهلية ثانية إلى دنيا الأدب ، وحمل هذا اللواء القديم كبار الشعراء في هذا العصر .

وسواء أصححت نظرية النقاد أم كانت فرضية تحتل النقد ، فإننا نرى طبقة من الشعراء في هذا العصر عادت إلى القديم وتغنت بشعره ، وزادت عليه في غريب المفردات ، ونقصد بهذه الطبقة العجاج وابنه رؤبة في الرجز ، وراعى الإبل وذا الرمة في القصيد .

أما عبد الله بن رؤبة التميمي البصري ، المعروف بالعجاج ، فقد وصف الأطلال في أراجيزه ، وصور الحياة البدوية كما صورها القدماء ، فرسم الصحراء وسرابها وغيثها وبرقها وحيوانها ، وعرض للفرس والناقة وبقر الوحش والذئب والنمر والأسد والنسر والجراد والذباب والبعوض . . .

وهذه الأراجيز شديدة الأسر في مفرداتها ، تغوص على الغريب حتى يخيل إيماننا

أن الشاعر لم يغادر في معاجم اللغة قافية إلا صادها . وأما معانيها فقديمة تقوم على التشخيص والتمثيل الحسى ، تتأثر امرأ القيس والمهلhel سواء في وصف الليل وأهواله أم في رسم الناقة وحمار الوحش وثور الوحش . والحديد فيها أنها أوردت المشتقات والجموع ومشاكله الألفاظ ، كأن الرجل صنعها للغة لا للشعر ، الكثرة الإغراب فيها ، والتكلف في سبكها والتصنع في رصفها .

وابنه رؤبة بن العجاج ، سار بهذه الأراجيز سيرة أبيه حتى لقد بلغ بعضها أربعمائة قافية ، جعلها لأبواب الشعر كلها حتى مديح الخلفاء العباسيين ، فزج بين الموضوعات ووازن بين الأشخاص والأنهار ، وفضل الممدوح على البحر أو النهر ، ووصف البادية في سراها ومفازتها ، وأطال فيها حتى هام بها اللغويون ، ففيها كل ما يريدون من غريب الأفعال والأسماء والمصادر . وهى على هذا تضم صوراً بارعة في وصف الموضوعات ، لكن الوصول إلى معانيها يقتضى نبش المعاجم وفهم الصور . ولهذا أحبها الخلفاء وقربوا الشعراء لإجادتهم في سبكها إحياء لماضى اللغة ومعانيها . وسرى أن الشعراء هاموا بها حتى في العصور العباسية فسعوا إلى تقليدها وضربوا في ذلك بسهم كبير ، كأبي نواس وابن المعتز وأبي فراس الحمداني .

وأبو مرقال الزفيران ، فعل ما فعله العجاج وابنه رؤبة ، ولكنه كان أسهل لفظاً ، وأقل إغراباً ، على أنه لم يصنع جديداً مبتكراً في المعانى البدوية القديمة ، ولا نحب أن نروى من هذا الرجز ، فهو يوجبنا إلى شرح وعناء ، نحن عنه في غناء لضيق الصفحات ، وإنما نحيل إلى « مجموع أشعار العرب » ، وقد طبعه في صدر هذا القرن المستشرق أهلورت ، ففيه شفاء الغليل .

وأما راعى الإبل عبيد بن حصين النميرى ، فقد ظعن إلى البادية ووصف لإبل بأساليب القدماء ، ورسم حياة الرعاة ، فسمى بالراعى . وكان تصويره للإبل شبيهاً بصنيع القدماء في ضخامتها وقوتها ، ولكنه أضاف إليها وصف الحادى والراعى

وتأليف القطيع . وعهدنا بالجاهليين أنهم يصفون الناقة بمفردها تسير ، فيشبهونها بحيوان الوحش ، ولكن الشاعر صور عادات البدو في نحر الإبل والشجاعة تصويراً يخيل معه إلى السامع أن الشاعر مفتون بها كما فُتن الغزلون بمعشوقاتهم ؛ وهو مع هذا لم يخل من إغراب في اللفظ دفع اللغويين إلى جمع شعره والعناية به والتعلق بمفرداته .

والشاعر ذو الرمة هو الذى حمل لواء البادية كما قالوا، فاتجه إلى وصف الإبل وعاج حيناً على أوصاف القدماء في رسمها كامرئ القيس وعنزة وزهير ، ثم برع في وصف الطبيعة وألوانها ، فعمد إلى الدمن والأطلال والرياح والأمطار ، وهو حين يصف ناقته في قصيدته المشهورة « ما بال عينك منها الماء ينسكب » يجعلها هزيلة تشكو الضعف والمرض والأوجاع ، ولكنها تسبق الإبل ولا يصيبها وفي ولا تعب ، وإنما تجرى كالريح العاتية وتثب كما يثب حمار الوحش حين يعدو كالمجنون أو الهارب بالإبل حين الغارة لعله يبلغ العين . فإذا بلغها وصف الضفادع والحيتان والصيد والصدقر والخبارى والحمار الوحشى والثور والظلم .

هذا كله في قصيدة واحدة ما نرى لها شبيهاً في أدبنا العربى قد جمعت أوصاف الحيوان وأنماط التشبيهات ، فكأنها متحف يغص بهذه الألوان الحية ، وقد أعجب بها الشعراء منذ القديم فتمنى جرير أن تنسب إليه ! ذلك لأنها مقسمة مرتبة مهذبة . وأكثر معانيها صورة للشعر الجاهلى ، لكنه نظمها من جديد وأجاد في عرضها لتشمل شعر الطبيعة كله ، لعلها تغنى عن الدواوين مجتمعة ، ولا تغنى كلها عنها . فهو حامل لواء الوصف في العصر الأموى ، وقد قال فيه ابن قتيبة : « إنه أوصف الناس لرمل وهاجرة وفلاة وماء » .

الفصل السادس

العصر العباسي

وصف الحيوان

النياق - الخيل - الأسد - الذئب - النحل - الكلب - الديك - الفهد -
الصقور - السمك - البعوض - الطير - الهر والجردان .

انتقل الحكم من دمشق إلى بغداد فاشتدت صلة الحكام بالفرس وحضارتهم وزاد اتصالهم بالتقاليد الأعجمية ، واصطبغت الطبقات الرفيعة في الشعب بصباغ الحياة الجديدة ، وكان على الشعراء أن يسيروا مع هذا التيار الجديد فحسب ، أولاً أن تياراً معاكساً راح ينحو نحو القديم يدفعه الحنين إلى أمجاد العرب وانغمس ومغانيهم القديمة ، فظهر في الأدب أنصار لهؤلاء وهؤلاء ، ودخل الوصف في معمعان هذه المعركة بين القديم والجديد .

والواقع أن الشعراء أخذوا بالقديم والجديد معاً كأنهم يسعون إلى إرضاء الطائفتين ، فظلوا في بعض الأبواب يقلدون ، وراحوا في بعضها يجددون ، بل هم حاولوا محاولات بارعة فأخفقوا حيناً وانتصروا حيناً **ل** وسنعرض لوصف الحيوان عندهم لعلنا ننهي إلى الموازنة بينه وبين ما كان عليه في الشعر الجاهلي والأموي .

النياق

وقد رأينا وصف النياق والإبل والخيل على ألسنة الجاهليين والإسلاميين ،

يصفها الشعراء ، لأنهم عاشوا على مقربة من البادية ، ولأنهم أرادوا أن يشاركوا في وصفها أو يبعثوا الحنين إلى ذكرها . فقال أبونواس يصف ناقته :

واقعد تجوبُ بي الفلاة إذا صام النهارُ وقالت العُفْرُ (١)
شذنية رعت الحمى فأنت ملء الخزام كأنه قصرُ (٢)
تثنى على الحاذِ بين ذا خصل تعماله الشولان والخطرُ (٣)
أما إذا رفعتهُ سامدةً فتقول : رنق فوقها نسرُ (٤)
أما إذا وضعته عارضة فتقول : أرخى خلفها سترُ
وتسفَ أحياناً فتحسبها مترسماً يقتاده أثرُ (٥)

فهذه الناقة تجوب به الفلاة في الظهيرة وقد اعتدل النهار واستراحت الظباء في القيلولة ، وهي قوية متينة ، تحرك ذنبها فتصيب فخذها ، فكأنه نسر إذا رفعته جادة في السير ، أو كأنه ستر إذا أرخته . وتدنو من الأرض فكأنها تبحث في الرسوم عن أثر . وناقاة أبي نواس هذه كناقاة الجاهليين في ضخامتها وطول ذنبها وقوتها ، وفي غرابة مفرداتها ، ولو تركت من غير نسبة إلى شاعر معين لذهب الظن إلى أنها قيلت في العصر الجاهلي أو الإسلامي .

ووصف مسلم بن الوليد ناقته سريعة قوية تضرب بذيها يميناً وشمالاً ، وتسرع في إرقالها ووخدها . ووصفها ابن المعتز فرأى فيها ما يرى الجاهليون فقال :
رأيتُ أنهما الدرّ بين فروجها كما عصرتُ أيدي الغواسل أثوابا
كانَ على حلابهنّ سخائباً تجود من الأخلاف سخاءً وتسكابا

(١) صام النهار : اعتدل - قالت : استراحت - العفر : الظباء .

(٢) شذنية : منسوبة إلى شذن : فحل بايمن أو موضع فيه - الحمى : موضع الكلاء .

(٣) الحاذين : ثنية حاذ ، وهو جانب الفخذ - الشولان : رفع الناقة ذنبها - الخطر :

رفعها إياه مرة بعد أخرى وضربها به حاذبها .

(٤) سامدة : جادة في سيرها - رنق : حام ورفرف للوقوع .

(٥) تسف : تدنو من الأرض - المترسم : الناظر إلى رسوم الدار .

خوازن نحض في الجلود كأنما تحمل كثناناً من الرمل أصلاباً
 فهي قوية ضخمة يسيل الدرّ بين فروجها كما يسيل الماء من الثوب على
 أيدي الغواسل ، وهي مكتنزة اللحم . كأنّ في الجلد كثناناً من الرمل ، وقديماً
 أحبّ العرب النياق الضخمة المكتنزة .

ووصفها في موضع آخر فأعاد معاني القدماء وصورهم قال :

حتى طويت على أحشاه ناجية كأنما خلقها تشييد بنيان
 كأن أخفافها والسير ينقلها دلاءُ برّ تدلت بين أشطان
 لها زمام إذا أبصرت جولته حسبتُ في قبضتي أثناء ثعبان
 إلى هلال تجلت عنه ليلته باربه صورهُ في خلق إنسان
 فجعلها ترتع في مفازة بعيدة ، وهي وثيقة التكوين ضخمة الجسم كأنها
 بنيان مشيد ، وكأن أخفافها دلاء برّ تدلت بين الحبال . وهذه الصور جاهلية
 صرفٌ تعلق بها ابن المعتز فكان شديد الشبه بالأجداد ، وكان شبيهاً بزملائه في
 العصر العباسي إذ لم يخرجوا عن حدود القدماء في وصف الناقة .

الخيل

وصف العباسيون الخيل فأوغلوا في رسمها كذلك ، وأبو نواس جعلها مطية
 إلى الصيد ليس غير . وأما أبو تمام فقد أكثر من وصفها فجعلها شديدة
 الحركة والطيش كأنما خالطها مسٌ من جنون ، أو كأنها شربت خمراً فهي سكرى :
 كأنما خامره ألقٌ أو غازلت هامته الخندريس^(١) .
 عوذه الحاسد بخلاّبه ورفرفت خوفاً عليه النفوس

فهو يحبه ويعوذه خوف الحسد ، ويرى أن النفوس تميل إليه لحماله . ورسم
 في مكان آخر اختيال الفرس وجعله ملآن بالصلف والكبر ، ووصف حوافره

(١) ألق : جنون - الخندريس : الحمر العتيقة .

وصلبه وناصيته . ولو أنه بالحمرة قد بدا فيها الشيب ، وهو طائش مجنون نشيط ،
وبعضه أسود كالدجى وبعضه أبيض كثوب الحرير الفارسي ، قد سالت غرته كما
سال الماء :

قد سالت الأوضاحُ سيل قرارة فيه ففترق عليه وملتق (١)

صافى الأديم كأنما أبسته من سندس برداً ومن إستبرق (٢)

وبعد هذه السرعة التي تفوق الريح في جريانها ، يرسم الشاعر غرة الفرس
وأذنه ثم كفله الململم وذنبه الضافي . وصور منحرفه كالكبير ، يخوض الوغى
في حلة حمراء ، ويسبح في غمرة الموت ورحى المنية تطحن .

ووصفه الشاعر في ديوانه كذلك فقال : بأن الحصى تطير من تحته لسرعته
ذا ما حثه السوط . ورسم لحمه الحديدية يلوكها كما تلوك الفتاة مساوكها ،
ويتبختر كأنه يمشى بكم مسبل ، محجل في قوائمه غير اليمن .

والبحتري وصف الخيل فأبدع في تعداد سماتها وشياتها . قال إن جواده جارى
الحياد فطار سبقاً ، جذلان تلممه غرة كأنها البدر في تمامه ، وأذناه متقدمتان
كأنهما عينان يرى بهما . يختال ويكب ويشب ، طويل العنان والحزام ، معاففه
لينة كأنها الخيزران ، وفي غرته بياض كأنه الشيب في مفرق رجل لاه عابث
غزل . وأما صهلاته فكأنها الرعد في ازدحام الغمام ، فالعجائب تقسمت محاسنه .

ورسمه في قصيدة أخرى فجعله كالهيكل في ضخامته ، يهوى في سرعته كما
تهوى العقاب حين ترى صيداً ، وينتصب كالصقر؛ تحسب البدر في جبينه ،
وذنبه طويل يسحبه كالرداء ، صافى الجلد كصفاء السيوف في حمرة كخمر
معتقة . وصهيله كالموسيقا بل يفوق نبرات المغنين المشهورين . وهو جذلان ينفض
خصلة الشعر في غرته ، وشجاع يغشى الوغى فلا يحوج إلى جنة أو ترس ، ليس

(١) الوضع : الغرة - القرارة : القاع المستدير يجمع فيه ماء المطر .

(٢) السندس : ضرب من نسيج البرز أو من رقيق الديباج - الإستبرق : الديباج الغليظ .

له مقتل ، وإنما يقتل حيث يصيب . وجسده في لونه كأنه نمال متتابعة سوداء
وحمرأ :

✓ مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل

✓ وإذا أصاب فكل شيء مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل

وهو في قسيمة ثالثة : أشقر ساطع يغشى ظلمات الحرب فينيرها كالكوكب
المتأجج ، وشيائه كأنها مطلية بالدماء القانية ، يهيج السوط كما تهيج ريح
الجنوب حريق النبت ، جذلان أبداً ، تحسده الجياد إذا مشى ، دقيق الحصر
ضامر البطن ، على المتن وقوامه وثيقة .

وهذه الصور تتلخص في سرعة الفرس وطيشه ، واون جلده ، وغرته ،
وضخامته ، وذنبه الطويل ، ودقة خصره ، وضمور بطنه ، وعلو متنه . وهي لا تزيد
على ما عند الجاهليين فيما رأينا من وصف الخيل ، بل إن الجاهليين سبقوا في هذا
الميدان ، ولم يصنع المتأخرون كبير أمر ، إلا في وصف الصلف والكبر .

الأسد

أصبح الأسد في العصر العباسي موضوعاً للهو والصيد والرياضة ، وشارك
الخلفاء والأمراء في ذلك ، وروّضوا خيولهم على لقائه رابطة الجأش ، فجعلوها تعيش
إلى جانب قفصه ومرّونها على رؤيته كل يوم . وقد وصف الشعراء حفلات
الصيد هذه ، ورسّموا صوراً مختلفة للأسد .

أما البحري فقد ذكر الفتح بن خاقان وخروجه إلى صيد الأسد فقال :

✓ غداة لقيت الليث والليثُ نحدرٌ يحدّد ذاباً للقاء ومخلبا

✓ يخصّنه من نهر نيزك معقل منيعٌ تسامى روضه وتأشبا (١)

(١) تأشب الروض : تجمع والتف بعضه على بعض .

إذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنص ربربا (١)
 يجرّ إلى أشباله كلّ شارق عبيطاً مدمى أو رميلاً مخضباً (٢)
 شهدتُ لقد أنصفته يوم تنبرى له مصلتا غضباً من البيض مغضباً
 فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكاً إذا الهيابة النكس كذباً (٣)
 هزبر مشى يبغي هزبراً وأغلب من القوم يغشى باسل الوجه أغلباً (٤)

أقبل الفتح بن خاقان على الأسد ، فرآه في معقل حصين وفي قوة منيعة يستطيع أن يفترس حمار الوحش أو بقر الوحش ، فهو في كل يوم يقدم إلى أشباله صيداً جديداً ، ولحماً طريئاً يسحبه على الرمل فيمتزج بالتراب . وليس في هذه الصورة من الأسد إلا بطولته واقتراسه ، لم نلمح فيها شيئاً من أعضائه أو أجزائه ، وأعله قد جعلها ليوازن بين ضرغامين : ممدوحه « الفتح » والأسد المقصود ، فرأى أنهما قد مشى أحدهما إلى الآخر في شجاعة وبطولة مشى الند للند .

وابن المعتز حين وصف الأسد فعل مثل ذلك ، فصوره مخيفاً يهزم الجيش ويجرّ كل لبلة فريسة إلى أولاده يفرحون بها ، وهو شجاع جرىء يحسب الألف واحداً ، يهرب الدنيا زثيره فما يستطيع أحد أن يعدو على الأرض أو يسرى فيها إذا كان هناك :

يزعزع أحشاء البلاد زثيره ويذهل أبطال الرجال من الذعر
 إذا ضمّ قرناً بين كفيه خلاته يعانى عروساً في غلاتلها الحمر

وهذا جميل في وصف الحيوان وفريسته كعراك العرس والزوج في غلاتلها الحمر والمتنبى وصف أسداً قتله بدر بن عمار فرسم لونه الأحمر ، وصور زثيره

- (١) العانة : الأتان أو التقطيع من حمر الوحش - العقائل : ج عقيلة وهي أكرم كل شيء - السرب : التقطيع من الظباء وحمر الوحش - الربرب : تقطيع بقر الوحش .
 (٢) كل شارق : أى كل مطلع شمس - العبيط : اللحم الطرى - الرميل : ما خلط بالرمل
 (٣) الضرغام : الأسد - الهيابة : الجبان - النكس : الرذل .
 (٤) الهزبر : الأسد القوى - باسل الوجه : شديد العيوس .

يبلغ النيل والفرات وعيناه كمنار جماعة من الناس ، يعيش وحده عيش الرهبان ، لكنه لا يعرف التحليل والتحرير ، فإذا سار وطئ الثرى تهاً وصلفاً كأنه طيب يجس يد العليل في رفق :

يطأ البرى مترقماً من تبهه فكأنه آس يجس عليلاً (١)

ويرد عُفرتَه إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلاً (٢)

وتظنه مما يزمجر نفسه عنها لشدة غيظه مشغولاً (٣)

وهذا الشعر المتجمع على قفا الأسد يصير حول هامته إذا سار وانتصب فكأنه ملك الغابة قد حلّى رأسه بالتاج ، وهو لشدة صوته تظنه نفسه كأنه مشغول عنها . وهذه الصورة فيما نرى أبرع ما رسم الأدب العربي للأسد في لونه وعينه ومشيته وزثيره وزمجرته ، وشعره وهامته ؛ فهي على إرهابها حسية مادية تتجاوب مع رهبة الألفاظ وقوة التعبير .

أما ابن الرومي فقد وصف أسده بأنه غليظ كرهيه ، وأذنه مائلة كنصف هلال ، تخضع له الأسود حين يزمجر ، ضخم شديد ، رجب الصدر ، ذو كاهل أوبر قوى الظهر مكتمن اللحم ، وحيد في الفلاة مخوف ، وفي ذلك براعة وإيجاز .

الذئب

وصف البحرى ذئباً لقيه في الفلاة فرسم لونه الأسود المغبر وعظامه المقضقة ومتمنه المقوس ، وذنبه كالحبل يجره وراءه ، قد طواه الجوع فلم يُبق فيه إلا العظم والجلد والروح . تصوت أنيابه وفيها الموت كما يفعل المقرور حين يرعده البرد . وكان في الظن أن يرهب الشاعر هذا الذئب الجائع ، ولكنه وقف له كأنهما

(١) البرى : التراب - التيه : العجب - الآسى : الطيب .

(٢) الغفرة : الشعر اجتمع على قفاه - اليافوخ : الرأس - الإكليل : التاج على رأس الملوك .

(٣) الزمجرة : تردد الصوت وشدة الصياح .

ذئبان ، كلُّ يُحدِّث نفسه بصاحبه . فاما عوى الذئب أرسل سمحه إليه فأورده
منهل الردى :

سما لي وبني من شدة الجوع ما به ببداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجد
وقد أرانا البحترى في هذه الصورة لون الذئب وعظامه ورهبتة وأسمعنا صوته
كالرعد ، ثم قتله ، وفيها يتفوق على ما رسم الفرزدق لذئبه ، ويشبه رسم الشنفرى
في وصف اللون والجوع والهزال ، ولكن البحترى صور عظامه ومثنه وصوت
أنيابه فزاد في الهول والرعب . والشريف الرضى لا يخرج في تصويره الذئب عن
هذه الأوصاف والحدود .

وقد وصف الشعراء العباسيون حيوانات أخرى كانوا يرونها خلال الصيد
أو تقع لهم في الرحلة والأسفار البعيدة ؛ فقد دخل الترف في حياة الشعب الإسلامى
وأصبح يخالو إلى صيد البر والبحر ، فيسافر أو يجرى وراء الظباء والثعالب والأرانب
ويقصد إلى الآجام في صيد الكواسر والأسود ، ويسعى إلى الأنهار ليصيد
السمك وطيور الماء ، واشترك الشعراء في هذه الرحلات أو في هذا الصيد ،
وأرادوا أن يشاركوا في وصفها فكانت لهم صور في أدبنا تدعو إلى الدراسة والنقد ،
سنعرض لبعضها هنا لأننا لن نستطيع الإلمام بها جميعاً فذلك باب واسع من
أبواب الأدب ، تضخم خلال القرن الرابع حتى ما يستوعب ولا يحصى .

النحل

عاش أبو نواس مع الطبيعة وسكر بمحاسنها وشرب في كل مكان ، فقصد
إلى الصيد والطرده والشرب ، وتغنى بما رأى وخلّف لنا لوحات بارعة خلال خمرياته
غزله نجد فيها صورة للحيوان لم نعهد لها من قبل . فقد رسم النحل في صورة

لطيفة تغدو وتجيء وتجمع العسل من الأزهار قال :

ترعى أزاهير غيطان وأودية وتشرب الصفو من غدر وأحساء
 فطس الأنوف مقاريف مشمّرة^(١) خوص العيون بريئات من الداء^(٢)
 من مقرب عشراء ذات زمزمة وعائذ متبع منها وعذراء^(٣)
 تغدو وترجع ليلا عن مساربها إلى ملوك ذوى عز وأحياء^(٤)
 كل بمقله يمضى حكومته فى حزبه بجميل القول والرّاء
 حتى إذا اصطك من بنيانها قرص أروينها عسلا من بعد إصداء^(٤)
 فالتحل ترعى أزاهير الغيطان والأودية وتشرب الصافي من الغدران ،
 وهى فطس الأنوف بشعة الوجوه غائرة العيون ولكنها سليمة من الداء ، فيها الحبل
 وفيها ما ولد منذ قليل وفيها ما يتبعها ولدها وفيها العذارى . وهذه المملكة كل
 حكومة فيها تعمل برأى وقول ، ولكنها مع ذلك تبنى مجتمعة قرصاً من العسل
 تقدمه شهداً حلواً للناس . وهذه الصورة بارعة فى الديمقراطية وبناء الممالك
 لا تشبها صورة فى الآداب الأخرى .

الكلب

ووصف أبو نواس كلب الصيد ، فصوره تصويراً مفصلاً لم نعهده
 عند الجاهليين ، فقد رأينا أنهم يسمعوننا نباحه وهجومه وتضحيته القاسية حين
 يموت فى فكى الطريدة ؛ ولكن الشاعر العباسى يصف عيشه فى بيت سيده وقد
 أنس إليه ، ويرسم من أجزائه ما وصف الشعر الجاهلى من الخيل والنياق ، قال
 أبو نواس .

(١) مقاريف : غير حسان الوجوه - خوص العيون : غائراتها .

(٢) المقرب : التى قرب ولدها - العائذ : الحديثة النتاج من الظباء - المتبع : ما يتبعها ولدها .

(٣) المسارب : المراعى .

(٤) اصطك : تم وكل - القرص : ج قرصة وهى فى الأصل القطعة من العجين .

أنعتُ كلباً أهله في كده
 وكل خير عندهم من عنده
 يظلّ مولا له كعبده
 وإن غدا جلّله ببرده
 بيت أدنى صاحب من مهده
 ذا غرة محجلا بزنده
 قد سعدتُ جدودهم بجده
 تلتقى الطباء عنتاً من طرده
 تلد منه العين حسن قدّه
 تأخير شذقيه وطول خدّه

فهو حبيب لسيدة أثير عنده بفضل سعيه وكده ، بيت أقرب الناس إلى مهده فإن أصابه برد جلله ، وهو ذو غرة محجل بزنده ، يلذ الرأي حسن قدّه ، فشداقه عريضان وخدّه طويل ، وهو شديد على الطباء في الطراد . وهذه الصورة جميلة تصف جسم الكلب وأعضائه وعمله في الصيد فتعيد إلى الذكرة وصف الشعراء الجاهليين للخيول وعنايتهم بها وحبهم لها .

الديك

ووصف أبو نواس كثيراً من الديكة ، فأحسن في وصفها لما كانت تهبجه في الصباح إلى الصبوح وتدفعه إلى الشرب وتنبهه إلى طلوع النهار ؛ فقال :

أنعتُ ديكاً من ديوك الهند أحسن من طاووس قصر «المهدى»
 أشجع من عادى عرين الأسد ترى الدجاج حوله كالجند
 يقعين من خيفته لاسفند له سقاع كدوى الرعد^(١)
 منقاره كالمعول الحمد يقهر من ناقره بالنقد^(٢)
 عيناه منه في القفا والحد ذو هامة وعنق كالورد
 له اعتدال وانتصاب قدّ كأنه الهداب في الفرند^(٣)

(١) السفند : نزو الذكر على الأنثى - سقاع : صوت .

(٢) النقد : ضرب الطائر بمنقاره .

(٣) الهداب : الطرف مما يلي طرفه - الفرند : السيف .

فهذا الديك الهندي جميل شجاع ، يقف في الدجاج كما يقف الملك في رعيته^(١) ، منقاره كالمعول يقهر به خصمه ، وهامته وعنقه كالورد الأحمر ، وأما قامته واعتداله فكأنهما السيف المستقيم ، وصوته كدوى الرعد، شديد الهيبة مطاع .

الفهد

وابن المعتز ، جراه في أكثر أوصافه للصيد ، فصور الفهد وكان يقوم عندهم مقام الكلب فقال :

ولا صيد إلا بوثابة تطير على أربع كالعذب
وإن أطلقت من قلاذاتها وطار الغبار وجدّ الطلب
فزوبعة من بنات الرياح تريك على الأرض شدا عجب
تضم الطريد إلى نحرها كضمّ المحب لمن قد أحبّ

وهكذا ترى أنه أسبغ على الفهد صورة حببية تصف حبه لهذا الحيوان وفرحه في الصيد بما يصطاد ، وسرعته في اللحاق بالطريدة كأنه يطير على أربع فيشير الغبار كزوبعة من بنات الرياح . وحين يعود الفهد منتصراً يضم الطريدة إلى نحره كما يضم المحب حبيبته . وهذا تصوير بارع لابن المعتز لا تنقصه الحياة ولا يتخلف عنه النشاط والحركة .

الصقر

ووصف ابن المعتز الصقر فقال :

(١) صور الصنوبرى ديكه بصورة قريية من هذه فجعله عقيد الملك من نسب كسرى وقد عقد على رأسه التاج ، يلبس المطرف ويرسخ الذوائب .

وأجدل لم يخلُ من تأديب يرى بعيد الشيء كالقريب^(١)
 يهوى هوى الدلو في القلبيب بناظر مستعجم مغلوب^(٢)
 كناظر الأقبل ذى التقطيب رأى أوزاً في ثرى رطيب^(٣)
 فطار كالمستوهل المرعوب ينفذ في الشمال والجنوب^(٤)

فاستخدم الصور الجاهلية القديمة في سرعة الصقر إذ شبهه بهوى الدلو في البئر أو نظر الأحول إلى الأوز حين يطير إليها كالمرعوب . وعمد إلى الرجز واللفظ البسيط .

ورسم الشاعر كذلك صيد السمك ، فوصف الجدول والحصى والزهر والشبكة والشص ، فرأى النهر فضياً والحصى نقياً والتربة ذات ثرى وضى ، والزهر مبتسماً . وقد اصطاد السمك بشبكة لها مقلة تلحق بالقصى من الحيوان . وقلده في ذلك السرى الرفاء .

البعوض

ووصف ابن المعتز البعوض ، فحدثت عن أثره في جسده فقال :

بتٌ يجهد لا أذوق الغمضا مسهداً يضرب بعضى بعضاً
 قد قطع القرقس جلدى عضاً منتهشاً بقرسه منقضا^(٥)
 كشرر القدح إذا ما ارفضاً يدمن إسخاطك حتى ترضى
 ولا تمالك من الضحك حين تتصور المسهد يضرب بعضه بعضاً ، وحين

(١) الأجدل : الصقر .

(٢) القلبيب : البئر - الناظر المستعجم : الذى ينظر إلى الشيء كأنه يعرفه .

(٣) القبل : الحول في العين .

(٤) المستوهل : الفزع .

(٥) القرقس : البعوض . - القرس بكسر القاف : صغار البعوض .

يقطع البعوض جلد النائم عضماً وينتقض كشرر القدح . ولكن هذا الضحك مؤلم لأنه يصور أكثر ليالى الشرق فى الريف خلال الصيف .

الطير

وابن الرومى وصف الطير شرعاً على حوض المنية ، وأصدقائه الصيادون يهتمون بصيده ضاحكين هازلين معهم آلاهم وقسيهم ، والطبيعة تبكى لمصرع هذا الحيوان وما ينتظره على أيدي الصيادين فيقول :

فظل صحابى ناعمين ببؤسها وظلت على حوض المنية شرعاً
وقدرت نقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربى ورساً مزعزعاً
وودعت الدنيا لتقضى نحبها وشول باقى عمرها فتشعشعا

ونحن نرى فى صورة الطبيعة والصيادين رسماً بديعاً مؤثراً أعاره ابن الرومى من نفسيته وحزنه وحبه للحيوان وشعوره الرقيق حياله .

وقد وصف الصابى البغاء محبوسة فى القفص كالغادة العذراء وما لها من ذنب فى هذا الحبس إلا أنها ضحية الحب ، قد تميزت بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان . ورسم السنجاب فجعله خفيفاً على النفوس تشبهى قربه العيون كأنه أخو الشباب .

وصور الصنوبرى الورشان ، ذلك الطائر المغرد ، الذى يودع المسامع ما شاءت وما لم تشأ من الألحان ، فجعله فى رداء من سوسن وقميص مزرر فى ظهره يبدو فى لون السماء ، وجيده فى لون الفرقدين ، وهو يدعو الصبح لأنه يملّ الكرى فيمدّ صوته حين يمدّ جيده . ورسم القمرى فى لون الغمامة يستغنى بهديله فى غسق الدجى عن مطرب الأوتار .

الهر والجرذان :

ولم يغفل الصنوبري عن الهر والجرذان ، فقال بأن الجرذان خلقت منذ الأزل للبعث والفساد والأذى والحراب تنقب في الأرض والسقف والحائط وتأكل كل شيء وتشرب كل ما ترى وتقرض الثياب . أما الهرّ فهو ليث الغاب كالقنفذ في ازبواره وكالذئب في افتراسه والحية في انسيابه ، ينصب طرفه أبداً قبل الزوايا وإزاء السقوف والأبواب ، ينتضي ظفره في حربه :

يسحبُ الصيد في أقل من اللحمة ولو كان صيده في السحاب

غاسل وجهه بإحدى يديه مستعين في غسله باللعباب

ويعى الصوت إذ يعى في طوى وهو يرنو إذا رنا من شهاب

ولهذا الهر قرطق وقلادة وخضاب ، كما نرى للهرة في عصرنا بالبيوت العربية ،

وهو صاحب بل أعزّ الأصحاب وأوفى الأحباب .

وهناك حيوانات أخرى وصفها شعراؤنا ، فقد رسم أبو نواس في ديوانه الثعلب والبازي والعنكبوت ، وصور غيره الذباب والبغال والحمير والضفادع ، وللحية في ديوان ابن المعتز وصف لطيف شبهها فيه بالغصن يعلوه نور وورق ، ولكننا لن نعرض لها هنا ، لضيق الصفحات ، مكتفين بما أوردنا من صور رسمها هؤلاء النوايغ فأبدعوا حتى الكأنهم يرسمون بالريشة والألوان ألواحاً لو عرضت في متاحف العالم لحازت سبق وربحت الخلود .

ونحن حين نوازن بينهم وبين أجدادهم نجد أنهم اتخذوا أول الأمر صور الجاهليين سنناً يسرون عليه ، ثم أفاضوا في الاختراع والابتداع ، فالتمسوا ألوانهم من حضارة الفرس وحياتهم الجديدة ، فجمعوا ثروة القديم إلى ثقافتهم المكتسبة ، وبلغوا ذروة وقف عندها الوصف فقصرت بعدهم أجنحة الشعراء في التحليق حيناً من زمن ليس بالقصير .

الفصل السابع

العصر العباسي

وصف الطبيعة الميِّمة

السحاب والمطر - الأنهار والبرك - السفن - الأزهار والثمار - الرياض - الليل والأفلاك - الأطلال - القصور والأبنية - المآكل والأطعمة - مرافق البيت

ألم العباسيون بالبساتين والرياض ، فعاشوا في هذه الطبيعة الجميلة ، ينعمون بالزهر والنور ، وينظرون إلى السماء ، وأفلاكها ، والأنهار والبرك والقصور المشيدة ، والسفن ومرافق العيش الحديدية ، فكانت حياة ناعمة مترفة لكثير من طبقات الأمة ، وذهب الشعراء مذاهب بعيدة في وصف هذا الكون الحديد ، واستطاع بعضهم أن يخلق بجناحين في آفاق حديثه ، وقعدت بعضهم أجنحة الشعر عن التحليق ، فلبث يردد صور القدماء وألفاظهم ، وسنعرض هنا نماذج لهذا الشعر الذي انطلق منذ فجر العباسيين حتى وقف الاختراع والابتداع ، وأصبحت همة الشاعر في أن يجتري وأن يعيد وأن يقلد .

السحاب والمطر

نظر الشعراء في هذا العصر إلى السحاب كما نظر القدماء فرأوا فيه قاتل المحل وجالب الخير والغيث والنعمة . والشرق العربي كله ما يزال ينظر اليوم إلى المطر والسحاب نظر القدماء فيرى فيهما قتلا للجذب وسبباً للخصب .

قال أبو تمام يصف ديمة إنها سمحة القياد سكوب ، يستغيث بها الثرى
المكروب . ووصف السحاب في مكان آخر فقال إن الدنيا صاحت : لقد أتى
قاتل الخمل ، وارتدى الروض بالبقل ، وانطوت بطون الأرض على خمل . فاهترت
ارتياحاً لرقعه كما تهتز البكر للبعل .

ورأى ابن الرومي في السحاب غطاء للأغوار والنجوم أقبات تمهذى في
سيرها فرأت الأرض فيها حياة بعد همود وغيثاً بعد إجمال ، وقال الناس هذه
فتوح السماء قد ظهرت لتطفيء الغليل . وفي قصيدة ثائية قال الشاعر :

إن هذه السحب يرسلها سائقها كيفما يشاء فتجود بدرها ، وتنبجس الأرض
وينشق الأديم فتقضى حقوق القيعان وبعد عقود ، وتجرى المياه فوق الربى
والوهاد ، وحينئذ يتضحك الروض الكئيب ويتفق الزهر والنور ، ويتنسم الخلق
النفحات ويضوع المدك ، ولا يرد الطير في كل مكان كأنه طرب مشوق يتعلل
بالغناء .

والبحتري أجاد في وصف السحابة والبرق فرسمهما رسماً موقفاً حين قال :

ذات ارتجاز كحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد

مسفوحة الدمع بغير وجد لها نسيم كنسيم الورد

ورنة مثل زئير الأسد ولع برق كسيوف الخند

جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتشرت مثل انتشار العقد

فراحت الأرض بعيش رغد من وشى أنوار الربى في بُرد

كأنما غدرانها في الوهد يلعبن من حبابها بالنرد

ففيها الرعد وصدق الوعد ، وهى تبكى بدمع مسفوح بغير وجد ، ونعيمها
كنسيم الورد ، وزئيرها كزئير الأسد ولعها كسيوف الخند ، وقد حامت ريح
الصبا من بعيد فانتشرت كما ينتثر العقد ، فأنعشت الأرض بالنور والزهر وأصبحت
الغدران منها يرقصن بالحباب كما يلعب بالنرد . وهذه أوصاف حسية شبه كل

شئ من بشىء يضارعه ثم كساها عاطفة الحنين والدمع والوجد وجعلها للخير والبركة والعيش الرغد . ولكنه لم يصف شكلها وضبابها ، والرسوم التى تنشأ فيها ، وإنما رسم تأثيرها فى الأرض وخدمتها للدنيا فقلد القدماء وجمع فيها كل ما قالوا فى مثل هذا الموضوع ، ولكنه أفاض فى التشبيهات وزاد فى رقة اللفظ فجاءت عبارته تغتنى غناء كما قال النقاد فى شعره كله .

وأما ابن المعتز فقد حسب أن السحائب لا تمل البكاء ، وأن دموعها تجرى فى حدود الثرى ، يقدح منها البرق كالسيوف الهندية ، فإذا دنت من الأرض جالجل الرعد أجش كصوت الرّحا ، ثم سمّت فارتدت الأرض بالنور والزهر، وشبّ النبات واكتمل . وفى قصيدة أخرى ، قال الشاعر إن البرق يضحك فيها فتمتصّل الأرض بالسماء كما تتصلّ الحميم بالحبال ، فكأن رعداها مستعبر يبكى فى صخب ، وهى أبداً مثقلة بالماء تهادى فوق أعناق الرياح ، ينفث بها النور وينتشر بها العطر .

وقد وصف الشعراء البرق بمثل طرف العين فى سرعته أو الشهب فى هبوطه أو كأنه حية تصدّعت أحشاؤها — كما قال ابن المعتز — أو كأنه سيوف لمعت لكنها تفعل فى الأرض فعل الوجد بأحشاء الحزين . وأبو تمام يرى البرق يتحول إلى ماء وهو نار ، يرضى الثرى ويسخط الغبار ، ويرى البحترى سرى البرق البرق كنبض العرق ، وابن المعتز يجد أن البرق يشقق السحاب كما يصدع المشرفى هامات الرجال ، أو كأنه سنا قبس فى جدوة من نار .

الأنهار والبرك

وما دمتنا قد عرضنا للسحاب والمطر فسنعرض للجداول والأنهار والبحيرات مما وصفه هؤلاء الشعراء ؛ فقد وصف ابن المعتز دجلة عند الفيضان فرآه كالبحر تخر لفيضانه الجدران كأنها تسجد أو تركع ، والسقوف تمطر والأرض أعين

تنبع ، والبستان فجوة يسبح في مأها الضفدع . ووصف شاعرنا بركة غناء
تموج فيها الماء ، كأنها في الدجى مرآة قد انصقلت ومقبضها الخليج .

ووصف البحترى بركة المتوكل كأنها واحدة في الدنيا يليها البحر في العظمة ،
وهي تنافس دجلة في الحسن وتباهيه كأن جن سليمان أبدوها ، فلو أن بلقيس
مرت بها عرضاً لقاتل إنها الصرح تمثيلاً وتشبيهاً ، تنصب فيها دفقات الماء كالخيل
تخرج من جبال مجريها أو كأنها الفضة البيضاء سائلة من السبائك ، فإذا مرّت
الريح أبدت فوقها صوراً كالدروع مصقولة الحواشي ، وإذا انعكست فيها
النجوم حسبها سماء ركبت فيها النجوم ، تغوص الأسماك فيها وتغيب ، وتحفها
الرياض كريش الطاوس في تلونها وزينتها :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

ووصف المنبي بحيرة طبرية فصور الموج مُزبداً والطيور فوق حبابها
كفرسان بلق تخونها اللجم ، فحين تضربها الرياح تحسب أن بها جيشين
يتحاربان أحدهما هازم والآخر منهزم . ووصف أبو فواس الماء والبرك فقال :

انظر إلى زهر الربيع والماء في برك البديع
وإذا الرياح جرت عليه في الذهاب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفا ثح بيننا حلق الدروع
فشبه صفحة البركة - كما فعل البحترى - بالدرع وحلقه تبدو كالموج

الضعيف حين تهب عليه الرياح مقبلة مدبرة .

وأكثر الشعراء وصفاً للنهر في هذا العصر هو الصنوبري ، إذ رسم نهر
« قويق » في حلب عدداً من المرات في شعره ، هجاهُ وتخر منه فقال :

« قويق » إذا شم ريح الشتا ء أظهر تيباً وكبراً عجيباً
وناسب دجلة والنيل والافرات بهاء وحسناً وطيباً

وإن أقبل الصيف أبصرته ذليلاً حقيراً حزيناً كثيراً
 إذا ما الضفادع نادينه قويق قويق! أبي أن يجيبا!
 تغوص الجراداة في قعره وتأبى قوائمها أن تغيبا!

فهو يصف النهر في الشتاء على كبر وتبه كأنه يفاخر دجلة والفرات والنيل
 أكثر ما ينصب فيه من سيول وأمطار ، ولكن الصيف يكشفه فيبدو ذليلاً
 حقيراً كثيراً تناديه الضفادع فلا يجيب وتغوص الجراداة في قعره فلا تغيب ،
 وهذه صورة جميلة في هجاء النهر . وله في البركة والفوارة صورة مليحة مستحسنة
 نرويها هنا :

وبركة منظرها يطربُ للماء فيه ألسن تعرب
 تحسبها من طول ترجيعها دائماً تنشد أو تخطب
 كأن فواراتها وسطها إذا ترامت لعبٌ تلعب
 من يمنة فيها ومن يسرة قنطرة واقفة تذهب

فالفوارة خطيبة متكلمة تنشد أو تغنى أو كأنها تلعب ، بل هي قنطرة تقف
 وتنتقل .

السفينة

ورسم الشعراء ما كان يجري على الماء من سفن كثرت لوفرة الأنهار ،
 فسالت فيها كما تسيل السيارات اليوم في دروبنا ، وكان هذا الرسم شبيهاً بصور
 القدماء لما يسبح على الرمل من هودج . وبشار يقول إن تيار البحور يتلاعب
 بالسفينة ، وربما رأيت نفوس القوم تجرى من جريها لرعبهم بتأيلها . وصورها
 مسلم بن الوليد كما يصور الجاهليون طبقات الرمل ، بل جعلها تسير من الإشفاق
 في جبل وعر تتثنى وتختلج ومجدافها يسوقها كجناحين ، فهي كالعقاب

تدلت من هواء على وكر ، وحين تواجه الصبا تمشى متمايلة كمشى العروس إلى الخدر .

وابن الرومي شبهها بالنسور في أجنحتها الخفاقة وخرائطها تطير على أبقائها وظهورها بمصطخب التيار ، فسيرها يشبه النعائم إذا تمهلت . وأما أبو نواس فقد وصف سفينة كانت للأمين في صورة الأسد ، كما كان له غيرها في صورة العقاب والفرس فقال :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برآ سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهرت الشدق كالحلح الأنياب (١)
لا يعانيه باللجام ولا السوط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذا رأوه على صرة ليث يمرّ مرّ السحاب
فهى لا تسير بلجام بل تجرى بغير سوط ومن دون أن يغمزها الراكب برجليه
فتمر مرّ السحاب فلم يخرج عن وصف القدماء للمطايا ، وإنما فضلها عليهم
إذ رسمها تجرى على الماء وتلك تضرب في الرمل .

ووصف البحتري السفينة فقال : إن فرعون ظن أنه إله النيل ولكنه لو رأى ما يركب المعتز لرأى قصراً على الماء يسبح :

إذاً لرأى قصراً على ظهر لجة يروح ويغدو فوق أمواجه يجرى
وأما مهيار الديلمي فيقول إنها تعودت الطوى لا تأكل إلا الماء ، فإذا كان
الفرس لا يطيق غير فارس واحد فإن الفرسان عليها مزدحون ، تشق الماء كالحية
في التراب ، ولها زبد من سرعتها ، فإذا رحلت بالشرع مرّت كأنها من جوافل
النعام ، فهو يوازن بينها وبين الناقة فيجد أن العليق عليها حرام ، ويسمى الزبد
الذي ترسله السفينة لغاماً كزبد الناقة سواء بسواء . وفي هذا برهان على أن صور

(١) أهرت الشدق : واسع الفم .

البادية لم تبرح مخيلتهم ، فلم يبتعدوا عن النياق والنعام والعليق واللغام وهم ينظرون إلى السفن تعوم على الماء .

والسرى الرفاء لا يختلف عن الشعراء في وصفها حين يقول :

كل زنجية كأن سواد الليـ ل أهدي لها سواد الإهاب
تسحب الذيل في المسير فتمختا ل وطوراً تمر مرّ السحاب
وتشق العباب كالحية السو داء أبقّت في الرمل إثر انسياب
فرسمها زنجية لأنها مطلية بالقار تسحب الذيل في المسير وتشق العباب
كالحية السوداء تركت أثراً بعد انسيابها .

الأزهار والثمار

أحب العربي الجاهلي الغيث فجعله نعمة ورحمة يستقي ويشرب ويسقى راحلته ويقنات ، واكن العباسي زاد على هذا كله أنه يرى فوق النعمة ترفاً ونعياً ، فيرى المياه والأنهار والبحيرات والبرك والسفن ، ويجد الزهر والنور في البساتين والرياض فينعم كذلك بمنظرها ومرآها ، ويأكل من الثمر ما لذ وطاب . وما أشرف القرن الرابع والخامس حتى انصرف الشعراء إلى الرياض والزهر والثمر ، فاستبدوا بالوصف وحلقوا فيه فأتوا بالعجب العجاب ، وخصوا كل لون من الأزهار والثمار بأوصاف مستقلة هدفوا إليها وسعوا في تصويرها ، حتى لقد قال بعض النقاد إن الطبيعة ظفرت في شعر الحمدانيين بنصر عظيم ونهضة طيبة . وقد تنبه المعاصرون في ذلك الزمان إلى هذا ، فجمعوا ألوان هذه الأوصاف وقاموا للموازنة بينها على أنها فن مستقل ، فكتب السرى الرفاء في ذلك وهو من رجال القرن الرابع ، عاش في العراق والشام ونظم في هذه الألوان وشارك فيها مشاركة شاعر وصاف ، لذلك عدنا إلى كتابه « المحب والمحبوب والمشموم والمشروب » ، ونظرنا في مخطوطته لنجمع أشتات هذه الصور ونعرض نماذج منها لعلنا ندلل للقارئ

على روعة ما وصل إليه الشعر في هذا العصر ، كما فعل المؤلفون بعده ، فجمعوا من فصوله وجعلوها في كتبهم ، كنهاية الأرب للنويري وغيره ؛ فقد نقلوا عنه بعض موضوعاته وفيها كل عجيب : نفح الأنوار وسقوط الطلّ عليها ، واهتزاز الأوراق والأغصان ، والشقائق ، والبنفسج ، والأقحوان ، والرجس ، والسوسن والياسمين ، والخيري ، والبهار ، والجلنار ، والسفرجل ، والزعفران . ولا سبيل إلى سردها كلها في كتاب موجز كهذا الذي نكتب فيه ، وفيها شعر جميل وثروة ضخمة . ولعل أحسن الشعراء في هذا الباب هو الصنوبري ، فقد دعاه مؤرخو الأدب بشاعر الرياض ، وسموا الفن الذي خلق فيه بالروضيات ، بل إن ديوانه بستان تمايل أغصانه بالثمر ، وتهتز نباتاته بالنور والزهر ، رسم الفصول وما تنبت من زهر وثمر فلم تفتته واحدة منها ، ولم يقصر شعره على فصل واحد ، وأكثه فضل الربيع :

إن كان في الصيف ريحان وفاكهة فالأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن في الخريف المحل محترقاً فالأرض محصورة والجو مأسور
وإن يكن في السماء الغيم متصلاً فالأرض عريانة والجو مقرر
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا جاء الربيع أتاك النور والنور
فالأرض ياقوتة والجر لؤلؤة والنبت فيروزج والماء بلور
لا تعدم الأرض كأساً من سخائبه فالنبت ضربان سكران ومخمور
فيه جنى الورد منضود موردة به المجالس والمنثور منتور
هذا البنفسج هذا الياصمين وذو الن سرين ذا سوسن بالحسن مشهور
فالصيف ذو فاكهة وريحان وفي الخريف تتصل الغيوم وتتعرى الأرض
ويسود القر ، وأما الربيع ففيه النور والنور ، والأرض خضراء والجو صاف
والماء بلور والنبات سكران أو مخمور ، والورد منضود والمنثور منتور .
ووصف كشاجم الشقائق حمراء مصقولة كأنها وجنات أربع قد جمعت ،

ولكل واحدة في صحنها خال . ورسم المهلبى البنفسج كأنها أوائل النار في أطراف
كبريت . وشبه الشعراء الورد بالحدود ، وزهر الأقوقان يتضحك فوق ساق
دقيقة كأنه سكران يتثنى ؛ والزرجس والخيري والسوسن والنارنج والآذريون تلتقي
في صور جميلة كما تلتقي الحسان في عرس كل تحمل أجمل زينتها وأطرف
أصباغها . وقد قال أحد الشعراء في البنفسج :

وكأن البنفسج الغض يحكى أثر اللطم في خدود الغيد
وقال أبو فراس يصف الجلنار :

وجلنار مشرق على أعلى شجره
كأن في رءوسه أحمره وأصفره
قراضة من ذهب في خرق معصفره

أما الثمار كالتفاح والسررجل فقد تلاعب بهما الشعراء فشبهوهما برسول القبل
حين تعض بالأسنان ، ورسومها بما في الوجه من صفرة أو حمرة لأنهم كانوا
يتهادون بهما . ووصفوا العنب والموز ، ويقول ابن الرومي في الموز :

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع إلى القلوب

الرياض

ونظر الشعراء إلى الطبيعة يرقص فيها الزهر ويلتمع النور ويتمايل الثمر ،
ويختال الشجر ، فوجدوا كأن الدنيا في عرس أو كأنها في عيد ، فأثنى ابن
الرومي على آلاء الرحمن لهذا المنظر الجميل ، ووجد أن الروض قد اكتسى
بأفواف الحبر فكان الطبيعة أنثى تبرجت للذكر بعد حياء وخفر . ونظر إلى
الرياض فرأى فيها مصابيح توقد وتلتمع ، والزهر يتضحك ويرسل أريجيه ،
وكأن البساتين تختال كما تفعل الفتاة في خيلائها تشكر المولى على ما أنعم
وتثنى على السماء في أرج وعطر ، والنسيم يسرى كما تسرى الأرواح في الأجساد

فتحمل شكرها إلى بارئها ، والحمام تتداعى كالبواكى أو القيان الشواذى أو كما تغرد الطير فى الأيك . ويلج الشاعر على معنى الضحك فى النور ويرسمه كما نرسم الأناسى فى عين اليقظى وجيد الناعسة ، والنبت قد اكتسى بالأصباغ فكأنه يلبس الطيالىس أو يحكى الطواويس ، بل هو يجد حين المطر مأمماً فى السماء يبكى والأرض تحته كالعروس فرحة مستبشرة .

والبحترى حسب أن الربيع يتكلم من حسنه ، فهو يختال ضاحكاً مسروراً لما يرى من زهر ونور ، فالورد ينبه النوم النعس ، والبرد يفتق الزهر فكأنه ييث حديثاً كان مكتوماً ، والشجر اكتسى بلباس كالوشى منهم ، ورق النسيم حتى لكأنه أنفاس الأحبة ، فتغنت الأوتار وانتشى الندمان كأنهم البدور يستحثون الأنجم . والشاعر يصف البرق يلمع ، والمطر يمتد إلى الأرض كحبال فتضاحك الأودية وتنتثر اليواقيت وقد جلل السور ظهر الأرض ، وتقلبت الألوان على الطبيعة فغرد الطير وهبت الريح تختال كالعدارى .

وأبو تمام يشبه زهر الربى بالقمر ، ويحسب أن كل زاهرة تترقرق بالندى فكأنها عين تحلق فى الناس فيقول :

من كل زاهرة ترقرق بالندى	فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجسم كأنها	عداء تبدو تارة وتخفر
حتى غدت وهداها ونجادهما	فتبين فى خلع الربيع تبخر
مصفرة محمرة فكأنها	عصب ^(١) تيمن فى الوغى وتمضّر
من فاقع غضّ النبات كأنه	درّ يشقق قبل ثم يزعفر

وهذه ألوان محببة مزج الشاعر بينها فجاءت لوحة مترعة بالفن صادقة الرسم كأنها صورة الدنيا تنطق بالجمال .

وأما رقص الأشجار وتثنى الأغصان فالبحترى يشبهها بالعدارى هبت

(١) العصب : برود مخططة يمانية ومضرية .

الرياح بها فأرقصت أفنانها ، وتقاربت للتعاقد كالأحبة تنعطف وتصغى للأسرار
أو تستمع إلى الغزل . وابن المعتز يزيد على هذا أن الأغصان في رقص وشرب
وسماع . والصنوبرى يفتن في رسم الشجر فيقول في السرو بحلب :

سروها الداني كما تدنو فتاة من فتاها

ثم يصفه كما نصف الغواني تتلاعب ويداعب بعضها بعضاً فيقول :

والسرو تحسبه العيون غوانيا قد شممت عن سوقها أثوابها

وكأن إحداهن من نفع الصبا خودٌ تلاعب موهناً أترابها

لو كنت أملك لرياض صيانة يوماً لما وطئ اللثام ترابها

فأعار الشجر صورة الآدميين وخص التشبيه بأحسن بني آدم صورة
وحسناً وهي المرأة ! ودعا إلى تكريم الشجر وجهه والحفاظ عليه كما تدعو
حكومات العالم اليوم إلى المحافظة عليه ورعايته .

الليل والأفلاك

وذهب الشعراء في وصف الليل مذاهب القدماء ، فقال بشار : ما لليل
لا يبرح كأنه موصول بليل آخر فما يتزحزح ، ورأى أن الكرى هو الذي أطال
ليله ، أو كأنه التغميض نبا عن عينيه كأن جفونهما قصار لا تتقارب . وابن
الرومي شبه الليل بالدهر لطوله قد تناهى فليس ثمة مزيد كأن نجومه نجوم
الشب لا تزول ولكنها تزيد يوماً بعد يوم ، وأبو العلاء المعري شبه الليل بعروس
من الزنج .

وتطرقوا إلى النجوم والأفلاك كذلك ، فرأى ابن المعتز أن كل نجم غائر ،
وأن هلال السماء كطوق عروس فوق غلائل سود بل إنه كمنجل قد صيغ من
فضة يحصد النرجس من زهر الدجى ، وأن الثريا كالعنقود في الغرب ، بل إنها
في أواخر الليل كتفتح الزهر أو كلجام مفضض ، وأنها قدم تبتت من ثياب
حداد . والبحتري يرى سهيلاً كشخص ظمان جانح يكرع . ووصف ابن

الرومي الشمس كالورس المزعزع حين تقضى نحبها . وابن المعتز يصف الصبح
قائلاً :

والصبح يتلو المشتري فكأنه عريان يمشي في الدجى بسراج
وفي كثير من هذه الصور إبداع جديد وتشبيهات حية تستعير صورها من
الناس والمخلوقات أو الأشياء في الطبيعة .

الأطلال

وسار الشعراء العباسيون كذلك في وصف الأطلال مسير القدماء ، فوقف
بشار بها وبكى أبو تمام ديار الأحبة ، ودعبل وقف بمنازل الرسول ، والبحترى
رثى المنازل كذلك وبكى على الدمن الموائل كالنجوم فإذا عفت فهو يتساءل
بأى نجم يهتدى ؟ ! وهذه الصور لا جديد فيها ولكننا أوردناها لنتهي إلى
تعلق القوم بأوصاف القدماء في كثير من أغراض الشعر .

القصور والأبنية

رأينا أن الشعراء العباسيين قلدوا في وصف الأطلال ووقفوا عند معاني
الأقدمين ، ولكنهم على ذلك وصفوا القصور والأبنية الحديدية ، فرسم البحترى
قصرأ بناه المتوكل على الله بن المعتصم ، وشبه علوه بجبل رضوى أو شواهدق
خيبر ، وقال إن الناس ينظرون إليه كما ينظرون إلى نجم المشتري . وقد عانقت
شرفات القصر قطع السحاب ، فكأنه يصف ناطحات السحاب لعصرنا الحاضر .
ووصف البحترى كذلك قصرأ بناه المعتز بالله فصور الحمام وقد دعر من
منظره حين ترنم فوقه ، وصور حيطان الزجاج لججاً توج على السواحل ، وكان
تفويف الرخام حبك الغمام رصفت في ألوان مختلفة ، وكان سقوفه المذهبة
تنير السبل في الظلام . وأما بساين القصر فكأنها كسيت بالبرود الموشاة ، والأشجار

فها مثل العذارى الغيد تمايلن عشية حاليات وعاطلات .
وتناول في وصفه قصوراً أخرى نقصر عن تعدادها وتلخيص موضوعاتها ،
فكأنه مهندس معاصر يرسم الأبنية ويصف صورها وأوصافها في شعر غنائى
يتخيل فيه الغمام والبرود والعذارى تختلط في لوحة واحدة ؛ وتحس في وصفه
لقصور المتوكلية كأنه يرسم المدن الحديثة وقد لمعت قصورها كالكواكب تضيء
للسارى السيل ، وهذا ما يشاهده المسافرون اليوم حين يركبون متن الجو ويحلقون
فوق العواصم الكبرى خلال الليل . ولن ننسى وصفه إيوان كسرى فقد أبدع فيه
وأجاد :

وأما الصنوبرى فقد صور مدينة حلب وحوطها القرى كأنها بدر الدجى
والقرى أنجم زهر ، ثم رسم الجامع والمثدنة والفوارة والقبة والسارية ، والشوارع
والدور ، وفعل مثل ذلك حين زار دمشق ، فوصف شامخ البناء وخاصة الجامع
الأموى .

الأطعمة والمآكل

وليس عجباً أن يعرض الشعراء لوصف المآكل والأطعمة بعد أن عرضوا
للسماء والماء والزهر والثمر ، والنبت والشجر ، وصيد البر والبحر ، فكأنهم يريدون
أن يصفوا كل ما وقع لهم .

وصف ابن الرومى اللوزينج ، وهى حلواء تشبه القطائف وتؤدم بدهن
اللوز ، فقال :

أرق جلدأ من نسيم الصبا	مستكثف الخبز ولكنه
من أعين القطر إذا قببا	كأنما قدت جلابيه
شارك في الأجنحة الحندبا (١)	يخال من رقة خرشائه

(١) الخرشاء : قشرة البيضة ، وكل شيء أجوف فيه انتفاخ - الجندب : الجراد .

لو أنه صور من خبزه ثغراً لكان الواضح الأشنبا^(١)
 من كل بيضاء يحب الفتى أن يجعل الكف له مركبا
 ذيق له اللوز فلا مرة مرت على الذائق إلا أبي
 وانتقد السكر نقاده وشاوروا في نقده المذهبا

فهو كثير الخبز ولكنه رقيق في جلده أرق من النسيم وقشره ناعم كأنه
 أجنحة الجراد ، مزج باللوز والسكر وأصبح يحبه كل فتى ويتمناه كل إنسان .
 فابن الرومي وصفه في دقائقه وتفصيلاته كما وصف الخبز في مراحلها بيد الخباز
 يدحو الرقاقة ، فتنحول من كرة إلى قوراء كالقمر ويرسم صورة الحجر يرمى
 في الماء ، وكما وصف الزلاية في رقة القشر والتجويف كالقصب ، وجعل الزيت
 المغلى كالكيمياء ، يحيل العجين من لحين إلى شبابيك من الذهب .

وكشاجم رسم القطائف كذلك ، ولا عجب فقد كان طبائخاً لسيف الدولة

قال :

كأنه إذا تبدى من كذب كوائر النحل بياضا وثقب
 قد ميج دهن اللوز مما قد شرب وابتل مما عام فيه ورسب
 ثم وصف البطيخ في لغة سهلة محببة تعودناها في رسمه للمأكولات خلال

قصائده :

يا جاني البطيخ من غرسه جنيت منه ثمر الخلد
 لم يأتنا حتى أتتنا له روائح أغنت عن الند
 كأنما تكشف عنها المدى عن زعفران زيف بالشهد
 بظاهر أحسن من قنفذ وباطن ألين من زبد
 كأنما في جوفه قهوة يتقع فيها عنبر هندي
 فهو ثمرة الخلد ورائحته تغني عن الند ، ولونه كالزعفران مزج بالشهد ،

(١) الشنب : ماء ورقة وبرد ، وعذوية في الأسنان .

ظاهره كالقنفذ في خشونته وباطنه كالزبد في لينه .
وقد صور الشعراء كذلك الدجاج المطبوخ والفراخ ، ووصف ابن العميد
طعامه وصفاً مسهباً في قصيدة تسيل بالكوامخ والأطياب من الماء كل ، ووصف
السرى الرفاء الحمل المشوى وصفاً جميلاً ، قد شق حشاه ، وصور الصابي طباخه
حين يطبخ له العجل والحروف .

مرافق البيت

ووصفوا ما كان في البيوت من مرآة ونخاتم وسبحة وثوب ودواة وأقلام ودفاتر ،
ومن شمع ونحل ومروحة ودنانير وفرو ، وجعلوا لها مكاناً في دواوينهم ، ونثرها
المؤلفون في كتب الأدب ، كما في كتاب التشبيهات لابن أبي عون ، والتحف والهدايا
للخالديين ، ونهاية الأرب للنويري ، وقد جمع هؤلاء الأدباء كل ما يخطر في
البال من هذه الأوصاف مما تهاداه الناس أو استحسوه ، ولا سبيل إلى حصر
هذه الألوان فهي كل حياتهم الاجتماعية وحضارتهم وتمذنبهم ، ولسنا نؤلف في
هذا هنا ، ولكننا سنكتفي بعرض نماذج من وصفهم لها .

أهدى المريمي إلى أبي الجيـش خـارويه بن أحمد بن طولون مرآة ووصفها
مع الهدية قال

مكشفة ستر العمى عن ذوى العمى ومنطقة في وصفها ألسن الخرس
بحيرة نور موجهها متدافع وليس لها غير التآلق من حس
لها نور إفرد ورونق جوهر يكدره أدنى التنفس واللمس
فهي تكشف الصور وتُنطق الأوصاف ، تموج بالنور وتتألق بالחס كنور
السيف ووشيه ورونق الجوهر ، تتكدر باللمس أو بالتنفس . وشبهه بهذه الصورة
ما قاله أبو بكر الخالدي في المرآة حين تنفس أمامها الحسناء فتشبه الغيم
الأبيض :

وتنقبت بخفيف غيم أبيض هي فيه بين تخفر وتبرج
 كتفنس الحسنة في المرآة إذ كملت محاسنها ولم تتزوج
 ووصف ابن الرومي الدواة سوداء محلاة بالذهب حين أهداها إلى أحد

الرؤساء :

قد بعثنا إليك أم المنايا والعطايا زنجية الأحساب
 قد تحلت بصفرة وكذا الزدج تحلى شكلا بصفر الثياب
 في حشاها بغير حرب حراب هن أمضى من مرهفات الحراب
 فهى زنجية وحليها الأصفر كثياب الزوج ، والأقلام فيها كالخراب بل
 أمضى منها .

ووصف نطاحة الكاتب دفتره فشبهه بالروض أو بالبرد في وشيه ، فيه
 السطور منظومة مشكولة منقوطة كأنه بستان خط غير أن الثمار اتخذت
 رسم الحروف فيه . وابن المعتز صور القلم كالفلك يجرى بما شاء ، يلثم القرطاس
 كما يقبل البساط الشكور ، وهو يجلب العطايا ، أو المنايا ، صغير لكنه كبير
 الأفعال .

وأبو بكر الخالدي وصف مروحته فجعلها من النخل والخيزران لبست
 سواداً كحداد العشاق ، ترد القيط وتخفى السر وتصلح لضرب الدلال ويومى
 بها في عروض الكلام . ووصف الصنوبرى الشمعة فرأى أنها تحول الليل نهاراً
 وأنها شجر يحمل ناراً ، وهى عذراء تفتض من أعلاها . والحسين بن الضحاك
 رسمها صفراء كذلك ولكنها مثل الأفاعى إذا أهدبت ، وشعلتها زرقاء كأحدق
 الروم :

ولم أر من قبلها أنفساً تذيب الجسوم بأحراقها
 وإن مرضت لم يكن برؤها بشيء سوى ضرب أعناقها
 وابن الرومي جعلها هيفاء من ندماء الملوك ، صفراء كالعاشق المدنف ،

فهي تكيد الظلام كما كادها ، فتفتى وتفنيه .

والشاعر الصنوبرى وصف نعلا يستهدىها فرسم أجزاءها وألوانها وصورها كالطائر ترفرف ، فكأن خرزها بالخيط يشبه عيون النمل ، وكأن شكلها يشبه أذن بقر الوحش فهي حيناً كالحية وحيناً كالعقرب إذ تقبل أو تدبر .
وتعرض أبو تمام للثياب فوصف كسوة الصيف كقشر البيض أو السراب الرقراق فى القفر ، يرجف بالريح كأنه كبد المحب أو قلب الخائف ، يلصق بالمتن والأضلاع ويطرد الهجير . وكذلك وصفها التنوخى فجعلها تخفق كقلب الحبان ، أو السراب والماء والسناء والبهاء حين تلتمع جميعاً .

• • •

وهكذا رأينا هؤلاء الشعراء خلال خمسة قرون يقف بعضهم بالأطلال يبكى الديار والمنازل ، وبعضهم يقف بالقصور فيصف الرياح والوحش والحآذر كأنه فى فلاة ، ومنهم من يركب المطى إلى الممدوح ، ويصطنع كثير منهم ألفاظاً بدوية وصوراً جاهلية . ولكنهم إلى جانب ذلك جددوا فى كثير من صور الوصف فى الطبيعة فرسموا ما لم يرسم الأقدمون وصوروا ما لم يقع فى الجاهلية وصدر الإسلام ، فكانت ثورة سايرت الزمن فى كثير من نواحي حياتهم الاجتماعية ، فخلقوا صوراً تمثل عيشهم وحضارتهم ، والأدوات التى كانت بين أيديهم والمشاهدات التى تراقصت أمام أعينهم .

الفصل الثامن

العصر العباسي

وصف الخمر والسقاة

انطلق كثير من الشعراء في هذا العصر إلى الشراب في الأديرة والحانات والقصور ، في مجالس عامة أو خاصة ، ووصفوا الخمر والسقاة والكؤوس ، وأصوات المغنين والمغنيات ، وهم يمتعون النظر بالراقصات من قينات أو جوار ، حتى لم يخل ديوان شاعر في هذه الأزمنة من وصفها سواء شربها أم لم يشربها ، فقد أصبح وصفها فذاً من الفنون لا يجوز للشاعر إغفاله أو القعود عن التسابق فيه . وكان القول في الخمر لم يكن يضير صاحبه أو يكلفه عنثاً ، فقد نقلت كتب الأدب أن الوزراء والأمراء وبعض الخلفاء أقاموا مجالس لشربها أو وصف ما يدور فيها ، ولذلك كثر الشعر في الخمر والشراب وتقلبت عليها الأسماء وتنوعت ، فهي قهوة ومدامة وسبيطة ومشعشة وصرف وعقار ومصفق وكميت وصهباء وسلافة وعانية و .. إلى ما لا نستطيع حصره . وكثرت كذلك آلات الشراب وتنوعت أسماؤها حتى خصت بها كتب في شربها وفي النديم كما فعل كشاجم وابن المعتز والسرى الرفاء ؛ والشابشتي في كتابه الديارات رسم الشاربين والعاثين في هذه الأماكن .

ولعلنا نستنتج من شعرهم أنهم يحبونها عتيقة أزلية ، فيقول أبو نواس : تفاني جسمها والروح باق ، ويقول ابن المعتز إن الناس أسكنوها الدنان من عهد عاد

وأن الدهر أكل ما تجسم منها وأبقى لبانها المكنون ، ويصرون فضّ ختامها
 كأنه الذهب أو توقد المريخ في الظلماء ، قال الصنوبري في ذلك :
 وأمطر الكأس ماء من أبارقه فأنبت الدر في أرض من الذهب
 وسبح القوم لما أن رأوا عجباً نوراً من الماء في نار من الذهب
 ووصف والبة بن الحباب إبريقها فقال :

إبريقنا مصلّ يضحك في صلّاته
 يكب ثم يُقعى كالظبي في فلاته
 يمجّ كل شيء يمرّ في لهاته

فلم يتورع عن إدخال الصلاة وألفاظها في وصف إبريقه ، ورسمه كالظبي
 يكب ويقعى. ووصف الشاعر البسامي إبريقه ضاحكاً باكياً كإنسان حزين فرح
 ملثم بالقز أو متشح به ، وصور الشرب حولها فقال :

ترى أباريقهم مقدّمة يعلها الفتية المغاوير
 كالطير حامت على شرائعها فابتل من وردها المناقير
 وهي صورة حلوة تجعل الشاربين من الخمر كالطير تحوم حول الورد فتبل
 مناقيرها . وتعرض الشعراء للون الخمر فجعلها ابن المعتز كالذهب :

وخمارة من بنات الجوس ترى الزق في بيتها سائلا
 وزناً لها ذهباً جامداً فكالت لنا ذهباً سائلا

والخمارة في العصر العباسي تكون رومية ومجوسية وفارسية ، وتكلف مالا
 طائلاً كما رأينا في العصر الجاهلي سواء بسواء . وحيناً ترى لون الخمر أصفر
 زعفرانياً إذا تأملتها حسبها في ثوب كافور ، وحسبت الطل بينها كدمع تحدر
 من أجفان مهجور كما قال ابن المعتز .

وأبو نواس يراها صفراء كذلك لا تنزل الأحزان ساحتها ، لو مست حجراً
 لأصابه سرور فكيف إذا شربها الإنسان؟ ! وأما رائحتها فهي كالعنبر أو

المسحوق الهندي من المسك قال فيها البحترى :

وفا نسيم كالرياض تنفست في أوجه الأرواح والأنداء
وفواقع مثل الدموع ترددت في صحن خد الكاعب الحسناء
ومسلم بن الوليد يصفها صاحبة كعين الديك لا تقبل القذى ، ويمزجها
ابن المعتز كالقدماء بماء السحاب فيرى في وجهها نسيج الدروع :

قهوة زوجت بماء سحاب فكسا وجهها نقاب حباب
مثل نسج الدروع أو مثل ميا ت تدانت به سطور الكتاب
وتراها في كأسها مثل شمس طلعت في ملاءة من سراب
فإذا صادفت فؤاداً خلياً لم تدعه فرداً بلا أحباب

إنها خمر ابن المعتز قد زوجت بماء السحاب فاكتست من الحجاب بنقاب
وأصبحت مثل ميات في كتاب ، فهي شمس في الكأس طلعت في ملاءة
من سراب. والشاعر يجد الماء كالفضة لها حلق بيض تحل وتعقد .

وشبهها البحترى في رقها بلفظ الصب يشكو حرارة الوجد . وكشاجم يراها
تحول الخليم سفياً .

لست أدري لركة وصفاء هي في كأسها أم الكأس فيها ؟ !
فهو يصف الكأس في صفاء ورقة يحبهما الشعراء كالصنوبرى وابن المعتز
ويقول فيها البحترى :

لبست زرقة الزجاج فجاءت ذهباً يستنير في لازورد
وكلهم في تشبيها بالشمس أو بالنور والذهب أو اللازورد ، يستعبرون
من الطبيعة والأفلاك ويجعلون ألوانها صافية مشرقة . وأبو نواس يخترع لها أوصافاً
عجيبة لشدة صحبته لها وعكوفه عليها ، فيجعلها كمصباح المساء .

وابن الرومي يصف الشارب في لطف ورقة وبلاغة فيقول :

أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس

فكأنه والكأس في فيه قمر يقبل عارض الشمس
وهذه الصورة أعجبت القدماء ووقفت في صفحات كتبهم تعبر عن
البلاغة المثلى والفصاحة العليا . وقد كلف بها الشعراء لأنها تزيل الهم وتشفي
الداء ، وابن المعتز شرب بالكبير وبالصغير من كؤوسها لا يحفل بأحداث
الدهور ويرى أن خيل الملاهي يجب أن تركض به وأن يطير بأجنحة السرور ،
فإذا ما استقرت في قلب فتى نسي لوعة الكدر فيقول :

خليلي اتركا قول النصيح وقوما وامزجا راحاً بروح
فقد نشر الصباح رداء نور وهبت بالندى أنفاس ريح
وحان ركوع إبريق لكأس ونادى الديك : حى على الصبوح
وحنّ الناي من طرب وطيب إلى ناي يكلمه فصيح
هل الدنيا سوى هذا وهذا وساق لا يفارقنا مليح

فهو حين يجتمع له الخمر يرى أن يجتمع الناي المطرب والساقى المليح !
فالدنيا في خير وسرور ، وليست مليحة إلا بهذا الشرب وهذا الطرب .
ووصف الشعراء كذلك ما تبعث الحمرة في العين والحد من حمرة قانية ،
وعينوا أوقات شربها حين تتسابق السحب والأمطار والغيوم في سماء الطبيعة ،
وتنعقد ألوان قوس قزح في الأفق ، فالشمس مريضة وكأن الحجب مدت عليها
ثياباً ، والطيور مشغولة تتطارح صنوف الغناء . وكثير منهم يستحب أن يشربها
والثلج يتساقط فتشيب الأرض وينتشر العبير ، كما فعل أبو فراس الحمداني
وكشاجم .

وقد قال الصنوبري يصف الطبيعة وهو يشرب :

الجو بين مضمخ ومضرج والروض بين مزخرف ومدبج
والثلج يهطل كالنثار فقم بنا نلهو بربة كرمة لم تمزج
وأحب شربها آخرون بقرب النار فرأى في ذلك اجتماع نار الراح ونار الحد ونار

الحشا في الصب. والصنوبرى يصيح بغلامه أن يجلب الكانون وأن يوقد النار ، وكذلك فعل كشاجم . وشربها بعضهم على الرياحين في شباب النهار واستمع إلى غناء الطير والنسيم يهب والشمس كدينار مجلو . وشربها غيره في الليل والليل لم ينتبه كأنه سكران يغط في نومه ؛ والليل كشعر الحسنة والحمر كخديها والشارب من ذلك في ليلين : شعر الحسنة والدجى ، وفي صبحين : كأسها ووجهها .
وهكذا نرى أن الشعراء اختلفوا في وقت شربها ، ولم يختلفوا في أثرها وفي فائدتها ، وانتفخوا على أن يكون خلال الشرب عيداً الطبيعية ، يمتزج الغناء بالرقص . والحو والشمس والسحاب والمطر كأنها تشترك في جلاء العيد وفي زينة المجلس !

السقاة ومجالس الشرب

وأما الساقى فيجب أن يكون عند أبي نواس مستعيراً خلق جارية ، فالدر مضحكه والقوس حاجبه والسهم عيناه والأشجار أرماع ، وفي رأى غيره يكون أحور قد تخضبت يدها من الكأس وماس بأعطافه كالحيزران، وعند ذلك يسقى بعينه ويديه . وابن المعتز يشرب من كف شادن يشكو لحظة السقام ، فكأن السلاف من ماء خده وكأن العنقود يقطف من شعره الجعد ؛ والبحترى يعتمر الحمر كذلك من خد ساقيه الشادن . وابن المعتز يصف السقاة وصفاً طريفاً جميلاً حين يقول :

وكان السقاة بين الندامى ألمات من السطور قيام

وأما الصنوبرى فيريد ساقيه لطيف المنطق ثقيل المؤزر مرتج الكفل غنج العين ، من نسل الدهاقين في الفرس ، فله عز السلاطين وللشاعر حين ذاك ذل المساكين ! فهو يتحكم في الشاعر كأنه يسحره أو يرقيه .

فالساقى عندهم محبوب معشوق له جمال وقتنة وسحر يتغلون به ويجدون

عنده لذتهم وهنأتهم . وفي القرن الثالث استحب كثير من الشعراء أن يكون ساقيه ملتصقاً بعقرب صدغه . ولن نعرض لأوصاف الغلمان والسقاة فهي كثيرة تجدها في كتب الأدب ، ذكرنا منها في كتاب الغزل ما سمحت به الصفحات هناك ، وصورنا ما كان الغزلون يستحبون من هؤلاء الغلمان .

ويسعى الشعراء إلى أن يكون جلاسهم وندمانهم في طيب الخلق والخلق ولا تطيب الراح عندهم إلا بطيب العصابة كلها لئلا يحفظوا على السكران زلته ، وهم يحبون أن يجتمع الشرب والطرب فتعمل المزاهر والنايات والعيدان وتجول القينات وتصول ، كما قال أحدهم في وصف ذلك :

ورنت على النايات أوتار قينة تشوق فتيناً إلى فتيات !

ويجب أن تكون القينة مشرقة الوجه معشوقة الألفاظ والغنج ، تعزف على الآلات وتطرب الأسماع ، فتدغدغ العود وتعرك أذنه . وقد وصف الشعراء في مجالس الشراب المغنين والمغنيات ، فأبدع ابن الرومي في وصف ذلك وخاصة فيما كان لوصف وحيد المغنية ، إذ رسم صوتها وهدهوها فقال :

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد

فيه وشى وفيه حلى من النغم مصوغ يخال فيه القصيد

واستطرد الشعراء من ذلك إلى وصف آلات الطرب كالنای والعود ، كما

فعل البوأء الدمشقي وكشاجم والصنوبري والسرى الرفاء .

وإذا كانت الخمر معتقة والأبريق جميلاً ، والوقت مواتياً والساقى فاتناً ، وسار الطرب وتحركت الموسيقى فأن ديبب الخمر في العظام يسرى كأنه النعاس قد أخذ بالمفاصل ، فهو يشرب الخمر ولكنها تشرب عقله خبلاً ، ويسلم روحه للراح ويميل رأسه على الكأس ويتلغم اللسان وتقول الجوارى إنه رجل من الأحرار صرعته الشفاه بالكأس والطاس . ويبرى السكران في الناس سقاة وفي الأشياء كئوساً كما قال أبو نواس ، ومع ذلك يستزيدون منها ، ويستشفون

بها ، ويجدون بها الدواء لكل داء ؛ ويقول الحسين بن الضحاك :
 أعود إليها وموتى بها كما تجرح الحرب أبطالها
 وهكذا رأينا أن العباسيين شربوا كما شرب الجاهليون وكما شرب من قبلهم
 من أمم خلال القرون ، حتى قيل إن إبليس عصر الخمر لقابيل وأولاده !
 ونقل كذلك أن آدم أول من غرس الكرم ، ونسجت كتب الأدب حول ذلك
 أسطورة تقول إن الخمر ولدت معها الخيلاء والزهو والمرح والرقص والعريضة ثم
 الانعقاص ، وذلك منذ الأبد حتى اليوم ، والشعراء رافقوا الأسطورة فكانوا
 ضحايا اللهب وشهود المعركة ؛ كما كان اليونان قبلهم والفرس ، ولكنهم لم
 يصنعوا للخمر آلهة كما فعل أولئك ، وإنما اكتفوا بصحبتها وحبها على الزمان ،
 فرسموها كما رسموا الحبيب والمعشوق ، وخلفوا فيها صوراً خالدة تفوق ما كان للشعر
 الغربي في رسمها ووصفها .

الفصل التاسع

العصر العباسي

وصف المعارك والحروب

أبو تمام - البحترى - المتنبى - أبو فراس - الشريف الرضى

قامت الحروب في عهد بني أمية ووصفها الشعراء فكانوا إلى الفخر بالنصر أقرب من وصف المعركة نفسها ، وتناولوا إلى ذلك بالهجاء خصوصهم . وثار حروب الخوارج فرسمها الشعراء كذلك وعرضوا للفروسية والبسالة والفتك والتفانى فجعلوا الثورة دينية وجعلوا المثل العليا رائدها . ونهض الشيعة في وصف نضالهم بالدمع والحزن وكان ذلك دينياً أيضاً . وابن قيس الرقيات وصف قتال الزبيريين وشارك كعب الأشقرى في الفتوح وحمل قسماً من القتال فشهد حروب الأزارقة وصورها فأبدع فيها ، ولكن هذا الشعر كله كان شبيهاً بحماسة الجاهلية ممزوجاً بفكرة الدين والعقيدة والدفاع عن المبدأ .

ولما انهزم بنو أمية أمام جيوش الدولة العباسية هزّت الانتصارات الحديدية شعراء العصر فوصفوا النصر والهزيمة وأكثروا من القول فيها ، وأكثر الذين فخرُوا بذلك هو ابن المعتز فقد أشاد بالحرب ورسمها وتهكم بالعلويين .

وقامت كذلك حروب داخلية في العراق بين قواد الترك ، وخرج كثير من الأمراء على الحكم فنشبت الحروب بين بغداد وبينهم ، واستعرت ثورات القرامطة والزنج ، وشبّت نيران العداوة بين الشيعة والسنة . ونشأ حول ذلك كله

شعر كثير رسم الخيل والسلاح وخراب المدن ؛ حتى إن ديوان ابن نباتة السعدي غصّ بكثير من صور الحروب .

ووقعت بين العرب والروم حروب عرض لها أبو تمام والمنتجبى وأبو فراس الحمداني وكثير من شعراء سيف الدولة ، فوصفوا ما قام عند الثغور أو ما وراء الثغور والتخوم حتى خرشنة أو على مقربة من القسطنطينية . وكان من هذا كله صفحات وافرة في وصف الحرب ، لو جمعت لكانت ملحمة كبيرة تفوق ما كان للأمم القديمة في وصف حروبها كالليونان والفرس والهند .

وقد وصف بشار بن برد معركة أثار غبارها وسيوفها حتى خيل إليه أنها نجوم تساقط في الليل . وأبو تمام على رأس الشعراء الذين وصفوا حروب الروم والعرب ، فاشترك فيها بعاطفته وتشفى من العدو وفرح لنكبته ، ورسم دياره وقد أصبحت طعمة للنيران يتراقص اللهب في أرجائها ، فيغنى عن نور الشمس في سمائها ، ووصف الفرسان قتلى وجرحى والنساء سبايا للجيش المظفر :

لم تشرق الشمس منهم يوم ذلك على
باكٍ بأهل ولم تغرب على عزبٍ
والبحترى شارك في ذلك فوصف الدروع في الحرب ولكنه لم يخرج على
أوصاف الجاهليين ؛ ورسم الأسنّة والرماح تسيل في البيداء مسيل السراب
أو كأنها خيال كواكب في الماء ، وأبدع في تصوير المعركة كما رآها منحوتة
في إيوان كسرى ، فأرانا الفارس يشيح فيهوى برمحه ، أو يليح خصمه بترسه ،
وعرض المنايا موائل في الحرب تكشر عن أنيابها لاقتناص الفوارس ، وأنو شروان
يسوق الكتائب تحت اللواء .

والمنتجبى وصف معارك العرب والروم فرسم العدو يسبح في نجيع من الدم ،
وكان السحائب تمطر عليه الحديد ، والمنازل تضطرم فيها النيران ، والقنا تفرع
القنا ، وموج المنايا حول الفرسان متلاطم ، ثم يصور القتلى من الروم مخاطباً
سيف الدولة في معركة الأحيدب :

نثرتهم فوق «الأحيدب» كَلته كما نثرت فوق العروس الدراهم^(١)
 تدوس بك الخيل الوكورَ على الذرى وقد كثرت حول الوكور المطاعم^(٢)
 تظن فراخ الفتح أنك زرتها بأماتها وهي العتاق الصلادم^(٣)
 إذا زلقت مشيتها ببطونها كما تمشى في الصعيد الأرقام^(٤)
 وقد انتثر القتلى في كل زاوية كما تنثر الدراهم حول العروس ، وتوزعت
 جثثهم في كل مكان فتجمعت النسور حولها تأكل وتنعم ، والخيول تبلغ
 بالعرب أعلى الذرى كأنها الحيات تزحف ببطونها فوق الصخور . ورسم الدروع
 تكسو الفارس والخييل ، فقال إنهم يجرون الحديد فكأن جيادهم لا تظهر
 قوائمها في المعركة لكثرة الحديد ، ومع ذلك قتلوا وهلكوا . وأبرع صورة في
 بطولة القائد حين وقف يستعرض الأعداء جرحى منهزمين ، ووجهه ضاحك
 باسم بالنصر ، وهو أقرب ما يكون من مواقف الخطر كأنه في جفن الموت ،
 والردى نائم غافل عنه . وهذه الصورة تقف للشعر العالمى وتصلح للقواد جميعاً
 من عرب وغربيين حين ينتصرون كسيف الدولة .

وأبو فراس الحمدانى وصف هذه الحروب ضد الروم ، وصور انكسار
 العدو وهرب الأبطال والملوك والقواد ووقوع نساء الروم سبايا في أيدي العرب ،
 وصور المعاقل تخر سجداً أمام العرب وشبه الأسرى والقيود تضجّ في أيديهم
 وأرجلهم بغناء الغوانى من غير مزاخر ، ووصف النصر فقال :
 وأوطأ حصنى « ورتنيس » خيوله وقبلهما لم يقرع النجم حافر
 فجعل حوافر الخيل تقرع النجوم حين بلغت الذرى في الجبال لتصل

(١) الأحيدب : جبل الحدث .

(٢) الوكور : ج وكر الطائر وهو موضع مبيته .

(٣) الفتح : ج فتحاء من العقبان وهي اللينة الجناح - العتاق : كرام الخيل - الصلادم :

الشداد .

(٤) الصعيد : وجه الأرض - الأرقام ج رقم وهو الحية فيها سواد وبياض .

إلى حصنيّ ورتينيس عند الروم ؛ وهذه صورة أخرى تقف لصورة المتنبي في زحف العرب إلى الأعالي والذرى بخيوطهم . وأما الصور التي رسمها الشاعران لنصر سيف الدولة في غزواته ضد القبائل فكثيرة لا تحصى .

والشريف الرضي أكثر من وصف الحروب والحيل والدروع السابعة ، وخصّ شعره بالماضي التاريخي كما فعل الصنوبري وكشاجم ، فرسم حروب العلويين وامتلاّت نفسه بالحزن وخاصة في مقتل الحسين ، وصور الغبار والرماح والانتقام والتشفي .

ولعلنا لم نختَر للمعارك شعراء كثيرين لأننا رأينا أن هؤلاء آثروا المجالس الناعمة والزهر والروض والماء والغناء والشراب ، وابتعدوا عن غبار المعركة وضجيج السلاح وقاني الدماء ، أو لأن الشعراء عاشوا أكثر الوقت في معزل عن السياسة والقيادة في الحرب والسلام .

الفصل العاشر

الوصف في الأندلس

ابن شهيد — ابن هاني — ابن زيدون — ابن حمديس — ابن خفاجة

انتقل العرب إلى الأندلس فوجدوا في القطر الحديد طبيعة مشرقة جميلة ، تشبه القطر الذي قدموا منه في اعتدال الهواء وطيب الإقليم ، فقد قال القدماء إن الأندلس كالشام في هوائها واليمن في اعتدالها ، فعاشوا فيه كما عاشوا في بلادهم الأولى ؛ وكان يذكروهم بأوطانهم فيتملكهم الشوق والحنين ، ولذلك كثرت الشكوى أول الأمر عند شعرائهم ، فوصفوا الفراق والجوى ، وظلوا كذلك حتى كان القرن الخامس الهجري فضعف هذا الشعور ببعض الشيء ، وأصبح الشعراء يتكلمون باسم البيئة والجو ، فنظروا نظرة جديدة مختلفة إلى طبيعة البلاد الأندلسية ؛ ولذلك كانوا فئتين فئة تعيش مع المشرقيين في المعاني والألفاظ ، وفئة تشق طريقها إلى معان طريفة فيها كثير من التجديد وسنعرض هنا أهم أعلامها .

وقد عاشت الفئة الأولى مع المشرقيين ، فجعلت في شعرها غريب اللفظ وقديم الصور وجمعت من أشعار الجاهليين كامرئ القيس وزهير وعنتره معانيها وأوصافها ؛ وأحسن من يمثل هذه الفئة هو ابن شهيد ، فقد وصف البادية والأطلال والخمر والنجوم والليل ، ثم رسم الورد كالأحدود حين تخجل والشقيق تشكو صفحاته من لطم اللاطم ، فاتخذ صوراً من العباسيين فيها البرق يضحك والثريا تمايل أيديها بخواتم مذهبة ، والشمس تنظر بعين رمداء ليس فيها قذى .

ولعله أتقن فنون البلاغة فسار في شعابها ومسالكتها كما قال فيه الفتح بن خاقان ،
وبذلك أعجب المشرقين إذ قلّدهم وجاراهم .

وابن هانيّ وجد كذلك مثله العليا عند الجاهليين والأمويين وبعض المحدثين
كأبي تمام وأبي نواس والمتنبى ، ولذلك قرنوه بمتنبى المشرق ، وكثير من شعره
يقع في البادية والصحراء ، ويصوّر الظن والأطلال والآل ، وبعضه يلتمّ بالبرق
وغناء الحمائم والمدامة ، على أساليب المشرقين ، فيسقى السلافة معتقة كلون
الجلنار ، ويركض نجم الليل كأنّ الليل يطلبه بثأر ، ويرسم الورد والزرجس
في صفرة وحمرة كما يرسمها العباسيون ، وتجد عنده رسوماً للسها وبنات نعش .

هذه هي الصورة التي عاشت قبل القرن الخامس الهجريّ ، فلما كان
هذا القرن اكتملت الحضارة في الأندلس وانقطعت صلة الشعب بالبداوة
وبيئتها ، فعاشوا في القصور والحدائق والبساتين قرب الأنهار والبرك والأحواض
يتراقص الزهر والنور لأعينهم وتداعب الموسيقى آذانهم ، فكأنهم في قطر غربيّ
بعيد كل البعد عن المشرق في طريقة العيش وفي أسلوب النظر إلى الطبيعة .

وقد كانت تهبّ عليهم نسائم العصر الحمداني وما كان لشعرائه من
تجديد ، فقاموا لوصف بلادهم ومدنهم فتعصبوا لها وغدا كلّ من الشعراء
يتغنى ببلده أو واديه ، فابن زيدون راح يشيد بقرطبة ، وابن سفر المرينيّ
بأشبيلية ، وترنم غيرهما ببلنسية ، حتى كان في وصف المدن والرروع كتاب
ضخم يغصّ بالشعر ، وكتاب نفع الطيب للمقرئ خير شاهد على هذا .

ونستطيع أن نقرأ هذا الشعر الذي يمثل وصف الأنهار والبساتين والغدران
والمدن ، وأن نرجع إلى هذه القصائد التي وصفوا بها البحر ، فقد
فتن الأندلسيون به وهاموا بحبه وركبوه ، وخالقوا فيه شعراً كثيراً يرسم الأساطيل
والسفن ، فاخترعوا معاني كثيرة في هذه الأوصاف ، ولكنك تقع بينها على
بعض معاني العباسيين مما لم يكن منه بد .

وابن زيدون وصف الطبيعة كذلك فأعارها حبه لولادة وحسه في القرب منها أو الشوق إليها ، فخاطب الريح والسحب والزهرة والمواطن والمرايع ، ورجاها أن تنقل إلى حسناؤه آية حبه ورسالة هواه ، وهو في هذه الأوصاف شبيه بالرومانتيكيين الذين يرون في الطبيعة أصدقاء يشفقون على بلواهم ، ويجلدون في النهر والحبل والبحيرة والشجر شواهد على محبهم تعطف على وجدهم وتبكي لأساهم ، فكل ما في الكون يحسُّ بمحبتهم ويشهد على آلامهم وأحزانهم ، فكأن الدنيا قد لبست لهم ثياب الحداد واكتست بالخزن . وهو على هذه الأوصاف أخذ من بعض معاني المشرقيين وتعلّق بصور البحرى فلقب ببحرئى المغرب :

وابن حمديس ولد في صقلية ، وهي فاتنة ، وانتقل إلى الأندلس وأفريقية فاتصل بالقفار والصحارى فوقع حيناً على معاني القدماء من وصف الأطلال والديار وآثار الأحبة ، وسخر منها حيناً آخر كما فعل أبو نواس ، وتطرق إلى أوصاف البرق والصيد والفرس ، فلاذ بأسباب المشرقيين وتعلق بنجد وغيرها ، وهتف كابن الدمينه ووصف الخمر كأبي نواس ، فسكر للغمام والطيور والشروق والغروب والنسيم الرقيق والسحب المظلمة ورسم الغصن بالثنى سكران بالندى والشمس تجرى كالذهب ، وذكر غرة الصبح وظلل الحمى . ولكنه على هذا التقليد كان يرمى إلى معان طريفة يحاول أن يشق طريقه بها إلى الجديد فيقول :

وراءك يا بحر لى جنّة لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحاً تعرضت من دونها لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقاً لى أن أعانق فيها ذكياً

وهي أبيات جميلة تبين عن وصف جديد للطبيعة ومعان مستحدثة ، فهو يتمنى أن يُعطى المنى ليركب الهلال كزورق فيبلغ الربع .

وابن خفاجة ، عاش للفن ، وابتعد عن السياسة ، وكان سعيداً بمقامه

ودياره يفضل الأندلس على الدنيا كلها ، ويرى فيها جنة الخلد ، ولو خيّر
 بلداً لاختارها ، فأقبل على الرياض واتصل بالبساتين وتعلق بمباهج الطبيعة
 فرآها كعروس ، ووصفها في صور جميلة وتعابير رقيقة تدل على تجديد في
 اللفظ والمعنى قال :

في أبطح رضعتْ ثغور أفاقه أخلاف كل غمامة مدرار
 نثرت بحجر الأرض فيه يد الصبا درر الندى ودرهم النوار
 فالأقاحي لها ثغور ترضع أخلاف الغمام ، ويد الصبا نثرت الندى كالدرر
 والنوار كالدرهم ، وهو يساجل الغمام ويطارح الحمام ويناجي الديار ، وقد
 عاثت فيها الظبي ومحا البلي محاسنها ، وصور الحمر وشربها من كف أحوى
 أحور ، فشرب معه الثرى وتغنى الهزار وشفق الماء ، وقد فعل شاعرنا كما فعل
 العباسيون في اختيار الغيم والثلج والمطر لأوقات شربه ، فوصف الشمس سقيمة
 صفراء واستمع إلى لحون الطرب والمغنين وغناء الطير وحفيف الشجر وتمایل
 النور ، ونظر إلى الأغصان تمايل من طرب ، وقد افتر ثغر الهلال عن سرور .
 وصورة الفرس عند ابن خفاجة تستعير من الروض كذلك فتجعل خده
 من الجلنار وأذنه من ورق الآس ، ورسم الليل كزنجي في سواده والنجم كدينار ،
 وصورة الذئب في ديوانه تستعير من النجوم والكواكب قسامها وألوانها ، وكذلك
 وصف الطير والكلب ، فهو بستاني يعيش بين الشجر والزهر فيغمس ريشته
 في ألوانها ثم يشبه كل ما يرى بها .

ووصف ابن خفاجة ما وصفه العباسيون من أشخاص وأشياء ، وزاد
 فرسم صورة للأحذب تختلف عن صورة ابن الرومي . ووصف الأسد وال نارنج
 والنار ، والأرنب والشراب ، واستعمل كزملائه صور المشركين حيناً وابتكر
 أحياناً ، فهو يصف النهر ويبدع في تجديده حين يقول :

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لمى الحسناء

متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه مجرّ سماء
 قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
 وغدت تحف به الغصون كأنها هدب يحفّ بمقلاة زرقاء
 فالماء أشهى من لمى الحساء ، وتعطف النهر كالسوار ، ورقته كقرص
 من فضة في بردة خضراء ، والغصون تحفّ به كما تحيط الهدب بالمقلاة
 الزرقاء ، وهذه في جملتها أوصاف طرقها العباسيون ، ولكن تجديده كان في
 عرض الصور بالفاظ جديدة واستعارات تصويرية فيها فتنة وسحر تشبه الأرض
 التي عاش عليها ، فهو جنّان قضى حياته في جنة الأندلس وخرج في أوصافها
 بصور جنائنية لا تجدها عند غيره .

وهكذا رأينا أن الشعراء في الأندلس أفاقوا في القرن الخامس الهجري
 على صيحة التجديد في التعبير والتصوير ، ولكن الزمن لم يتح للعرب أن يسيروا
 طويلاً في الطريق الجديدة فقد أخرجهم الأسبانيون من هذا الفردوس ، وقد كان
 أمل القومية العربية وأمل الوصف في الأدب العربيّ ، فخبأ النور الذي سطع
 خلال هذه القرون ، وجاءت عصور الانحطاط ، وبسط العثمانيون ظلّهم
 الثقيل على الأدب العربيّ فنام نومة طويلة ، ولم توقظه إلا نفحة من ديار
 الغرب هزّت كيانه هزا في الشام ومصر ، فتحرك لإحياء القديم أولاً ثم نشط
 للإبداع والاختراع .

افصل الحادى عشر

الوصف فى العصر الحديث

شوقى - صبرى - مطران - حافظ - العقاد - على محمود طه -

على الجارم - أبو شبكة - الأخطل الصغير - خليل مردم بك

ظلت مصر تستمع إلى شعراء الشام والعراق والأندلس فتطرب ولكنها لا تشارك فى قول الشعر ، حتى كان القرن الرابع الهجرى فانبرى شعراؤها يقولون فى الوصف خلال ثلاثة قرون كما قال العباسيون ويرسمون الطبيعة قيعيدون إلى الأذهان صور أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن زيدون وابن المعتز . وهكذا لمعت فى مصر أسماء ابن النبيه وابن قلاقس وابن الساعاتى وابن سناء الملك والقاضى الفاضل وابن مطروح ، وظهرت فى الأدب العربى أوصاف النيل والرياض حواه ، والسماء والأفلاك ، تستعير من أوصاف المحبوب فتنته وسمحه على أساليب العباسيين .

فلما كان العصر الحديث هبت على النيل ريح الغرب وحملت كثيراً من المصريين إلى أوربة ، فسرى فى النفوس شعور جديد يدفع إلى حب الأدب العربى وإحيائه بل وتجديده ، لذلك حاول كثير من الشعراء فى مصر أن يقلدوا الغرب حيناً فى أسلوبه وأغراضه ، وقام أمامهم فريق كبير يجب أن يقلد العباسيين فى اللفظ والمعنى ، وكان من وراء هذين الفريقين فئة من الشعراء شقت طريقها إلى شىء من الجديد الطريف ، وتنسم اللبنانيون أريج هذا الشعر فحملوه إلى لبنان وإلى المهجر ، فكانت محاولات فى الوصف

والتصوير ، تجارى العصر الحاضر واختراعاته فى كثير من عداوين القصائد ، ولكنها لا تخرج عن المعانى المطروقة إلا فى الألفاظ المجنحة والصور اللفظية الجديدة .

وقد حاول أحمد شوقى فى مصر أن يخص جانباً كبيراً من شعره بالأوصاف كالنخيل والبحر المتوسط والشرع ، فوقع على معانى القدماء ، ثم أراد أن يكتب فى الحيوان فجعل قصصه تقليداً للشاعر الفرنسى لافونتين ، لا تصويراً كما فعل الصنوبرى والسرى وكشاجم .

ولقد سعى إلى تصوير الخمر والرقص والربيع والمساجد والكنائس والقصور بعد أن رأى وسمع وسافر إلى باريس ومدريد ، ووقف فى غاب بولونيا وعلى قبر نابليون ومسجد قرطبة ، وضواحي جنيف وأطراف البوسفور ، وراح يرسم ما شاهد ، ولكنه لم يفعل شيئاً جديداً ، فلم يتعد عن التقليد ولم يتخلص من معانى القدماء وتشبيحاتهم وأوصافهم ؛ بل أضاف إليها عواطفه الشخصية وأحاسيس نفسه .

فلما تعرض للطيارين الفرنسيين ذكر سليمان وبساط الريح حين وصف الطائرة :

صهوة العزّ اغتلوا تحسبهم	جمع أملاك على الخيل تسامى
رفعوا لولبها فاندفعت	هل رأيت الطير قد زفّ وحاماً (١)
شال بالأذنان كل ورمى	بجناحيه كما رعت النعاما
ذهبت تسمو فكانت أعقباً	فنسوراً فصقوراً فحماماً
تنبرى فى زرقه الأفق كما	سبّح الحوت بدأماء وعاماً (٢)

وهى صورة جاهلية فيها الطير والنعام والنسور والصقور والحمام والحوت ،

(١) زف الطائر : رمى بنفسه أو بسط جناحيه .

(٢) الدأماء : البحر .

قد اجتمعت لتعير الشاعر من رسومها ألواناً وأشكالاً لهذه الطائرة ، ولولا كلمة لواب وزرقة السماء لحسبنا أنها تجرى بين الحيوان على الأرض . والواقع أن الطائرة تشبه الطير أكثر ما تشبه وقد اخترعت تشبهاً بالطير ، واكن الشاعر يستطيع أن يتخيل في رسمها أبعد من هذه الصور الحسية المادية الصرفة في القرن العشرين . ولعل عذره في ذلك أن أحداً من الشعراء لم يخض معمعان هذا الوصف فكان الميدان بكرةً . وشأنه في وصف الطائرة كشأنه في وصف السفن والسيارات وغيرها .

وإسماعيل صبرى وصف النيل والبرق والسحاب والدواة والشيب ، والثعلب والغراب ، ولكنه جعلها في رسوم العباسيين ، تأخذ من الحيوان والجنان والأشجار ؛ فقد قال في البرق إن سناه عيون مراض أو مصابيح قبل الانطفاء أو سيوف تميل بأيدى الكمأة أو مواطئ الخيل على الصخور يتطاير منها اللظى . وخلييل مطران ، رسم قلعة بعلبك مسقط رأسه ، فعرض للنحت والصور والجنان المعلقة في أسلوب بسيط سهل ، طريف . ووصف الأهرام فتعلق بالعبرة أكثر من الصورة ، وامتلاً ديوانه بأوصاف كثيرة في الورد والبنفسج والزنبقة ، فحلق في معان كثيرة لم نرها لغيره :

وأفانين من شقيق ومن فلّ
ومن مضعف ومن ريحان
كل ضرب شبيهه سرب جميع
مفرد عن لداته في مكان
طال فيها تأملي وكأني
كنت منها في روض عين حسان
وهكذا دفعه خياله لأن يشبه كل زهرة بحسنة فكانه في جمع منهن يتوحي
شبيهاً لمعشوقته ، فإذا هي كما يقول في قصيدته تشبه الزنبق في طهرها ونقاها .

ووصف الشاعر سرباً من العيد يصنعن حلوى العيد فيخرجن من كتل العجين بدائع بأيديهن ، وأناملهن مخلصوبة بالدم لشدة حمرتهن ، وزنودهن كالعاج معرفة بالزمرد ! .

وأتيح للشاعر أن يصور مشاهد من أرض الكنانة جميلة كمجنى القطن وصيبات

المزارع يخظرن فيها متغنيات هازجات ؛ وصور مشاهد تاريخية بارعة في قصيدته [الكبرى « نبرون » فرسم حريق روما وحال الشعب الروماني . ووصف المدن السورية واللبنانية في ديوانه مثل زحلة والمعلقة وطرابلس الشام وحلب وبكفيا والخشارة، وصور المشاهد الجميلة فيها . فهو بحق شاعر الشام ومصر في ديوانه حين نفهم من ذلك وصف ما في القطرين الشقيقين من معالم تاريخية ومناظر ساحرة .

ومطران وصف الطائفة مثل شوقى ، ولكنه وصف النياق والجرذ العتاق ، وجعلها مزجاة بأجنحة غلاظ تزف زفيفاً ، وحين عرض للطيارين اللذين قتلا عليها قال :

هبط النسر بفرخيه وما كان صيادهما غير القضاء

وأما حافظ إبراهيم فقد عرض للوصف في شعره ، فرسم حوادث الزلزال في مسينا ووصف الشعب الإيطالي وما لاقى من عنت وعذاب ، وصور الطبيعة هائجة تغلى حقدأ ، والأرض تبغى والبحر يطغى والجبال ترحم وتمتدب بشواظ من مارج ودخان، فكأنه يستعير وصف جهنم من القرآن أو يوم القيامة حين تزلزل الأرض زلزالها . وهذا التصوير بديع يقول فيه :

بغت الأرض والجبال عليها وطفى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقدأ عليها فتنت شق انشاقاً من كثرة الغليان

فقد وصف نكبة الطليان بالزلزال كما وصف مطران نكبة الطليان بحريق رومة وجنون نبرون ، ولكن بأسلوب مختلف أخذ صورة من الشعر القديم ومثانته من روعة اللغة التي نعرفها لحافظ .

ووصف حافظ سفينة في البحر رحل عليها إلى إيطاليا فصورها تترامى

في المياه بصدرها لا تبالي بالموج أو بالصخور، تعلق تارة وتهبط أخرى ، وشبهها بالسيل وبجواد يسعى إلى الطعان :

وعليها نفوسنا خائسرات جازعات كادت شعاعاً تطير
في ثنايا الأمواج والزبد المندوف لاحت أكفاننا والقبور
ثم قال إن نفوس الركب جازعة خائرة تطير شعاعاً من الرعب في قلب
الأمواج ، والزبد كالقطن المندوف كأنها أكفان تهبأ وقبور تفتح ، وهذه
معان جميلة تقلبت على لسان حافظ في أوصافه ، اعتمد فيها حيناً على القدماء
واخترع حيناً بلطف حيلته وجميل عَرَضِهِ . أما الخمر فقد عصرها من خد
النجم تارة ومن حدود الملاح أطواراً ، وذكر قدمها قبل نوح ، وتعلق بمعاني
أبي نواس وغيره من العباسيين ، فطلب من غلامه أن يسقيه حتى لا يطبق الكلام
إلا بهمس ؛ وساقه رشاً لطيف تنطق عيناه بالسحر ، وخرمه حفظت في الصهاريج
منذ بابل وأقامت في جوف الدنان المظلمة ، وهذه كلها معان عتيقة قتلها
الشعراء ترديداً .

ووصف عباس محمود العقاد النيل ، والرياض ، والثلاج ، والنار ،
والبدر ، والشتاء ، والعقاب ، والكروان ، والصحراء ، واتخذ أكثر شعره في
الوصف ، وحاول أن يقلد الغربيين وأن يبتعد عن الشعر المصري المعاصر ،
ولكنه وقع كثيراً في معاني القدماء ، قال يصف السينا :

بربك ماذا في ستائر كطلس أشباح جن تلك تظهر للإنس؟
إذا لم تكن جنًّا فما لي عهدتها نفر فرار الجن من طلعة الشمس؟
فعاد في وصف العجائب إلى الجن كما عاد النابغة وغيره إليها حين وصفوا
القصور المدهشة والآثار العظيمة ، ورسم الستائر طلساً كذئب النابغة والبحترى
والفرزدق ؛ وله في صوت الكروان وعيشه صور جميلة حية لا تنسى .

وأما على محمود طه فقد وصف سفينة الجنود والحساء التي لقيها عليها ،

فصور عاطفته وحنينه إلى مصر وأهلها كما صور شوقي قصور الأندلس والحمراء ، فتحركت الأشواق وسكنت الألوان وخنفت الأشكال في كثير من صوره . وبعضها يحمل طابع الإبداع والتجديد ، ولو أن العمر امتد بالشاعر لأمد الوصف بكثير من روائعه .

وتعلق بعض الشعراء في المهجر وبنان ومصر بالوصف اللطفي ، كفوزي المعلوف وشفيق المعلوف والقروي فراحوا يمنحون الكلمات صوراً مجنحة - إذا صح التعبير - أو يكسون الموصوفات من خيالهم أشكالاً تطير بالسامع إلى جو طريف وتنقله إلى حيث يريد الشاعر ، وقد رأينا بعض اللحن والأهازيج في ديوان علي الجارم حين يقول :

ر فادت لها رواسى الجبال	ر وزامير أطلقت من فم السح
ع وتعطو بغصنها الميال (١)	ورنت كل سرحة تسرق السّم
ر وغنى بها نسيم الشمال	وأهازيج رددتها الأزاهير
موكباً حفت بالسنا والجلال	ذهل الشعر فاستفاق فأنى

وهذه صور جميلة ، فالزامير تغنى وتميد لها الجبال الراسية والشجر يسترق السمع ويتناول الغصن الميال ، والأغاني ترددها الأزاهير فتسرى مع النسيم ، وسخر الشعر بجمال الأنغام وذهل برائع الألحان ، ثم استيقظ فراعته موكب السنا والجلال .

وقد سار بعض شعرائنا على هذا النمط يعيرون اللفظ أجنحة من الوصف لعلها تكون لوحات رائعة التصوير والرسم ، تصف النفوس والقلوب والمشاعر ، وترسم الطبيعة . وإليك لوحة رسمها إلياس أبو شبكة للنجوم :

ق رشح خور على خابيه°	كأنّ النجوم الضئيلة في الأف
ليلة زانيه°	كأنّ النجوم زفير خطايا
تصعده	تصعده

(١) السرحة : الشجرة - تعطو : ترفع رأسها وتتناول .

وقد شهدنا فيما تقدم وصف شعرائنا للنجوم ، ولكننا لم نعهد تشبيها برشح
الخمور على خابية أو بزفير الخطايا من امرأة زانية . وما دمننا في رسم الطبيعة
فلنسمع إلى بشارة الخورى يصف جبل صنين بلبنان :

وأبو الربى صنين قام كشمعة بيضاء تمنع في السحاب وترتقى
يتوقد النجم السنى برأسها فترى بواجر دمعها المترقق
وهكذا رسم الثلج فوق صنين كشمعة تناطح السحاب وفي رأسها نجم سنى
يتوقد فتسيل الشمعة أسى وتبكي دموعاً . ووصف الشاعر الأخطل خمره فأبدع
فيها حين قال :

يا ذابح العنقود خضب كفه بدمايه بوركت من سفاح
أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتثاؤب الأقداح !
أدب الشراب إذا المدامة عربدت في كأسها أن لا تكون الصاحى !

وطبعى أن نجد بوناً شاسعاً بين معانى أبى نواس ومعانى الأخطل الصغير
في لبنان ، فقد ضربت الأيام وتقايبت على أدبنا مدارس ومذاهب أفاد منها
شعراؤنا المعاصرون ، فجعلوا ذبح العنقود والدماء تسيل منه والسفاح لعاصر
الخمير ، أما فراغ الأقداح فتثاؤب وملؤها عربدة ! وهذا جديد في الوصف ،
يدفعنا إلى الأمل بأن أدبنا يشدّ إلى آفاق جديدة .

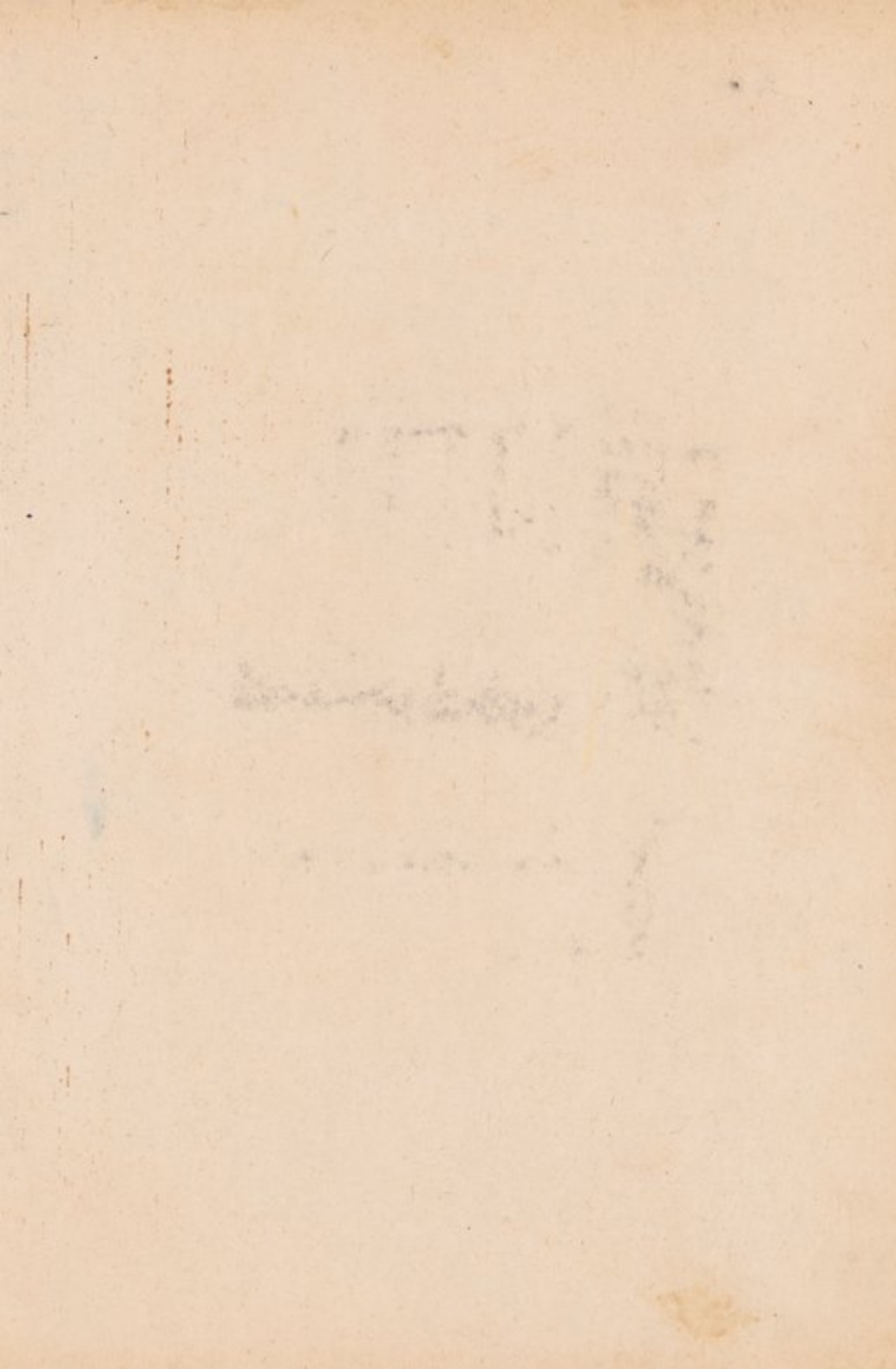
وعكف كثير من الشعراء المعاصرين في مصر والشام على وصف الرقص
والمراقص ، فأبدع منهم فيها الشاعر خليل مردم بك حين صور الأجساد
متلاصقة حتى ما يخلص الماء من بينها من فرط اعتلاق ، وكأن الفتى يحمل
ثدي فتاته لشدة القرب حين الرقص . وعمد هذا الشاعر إلى المآذن والنيران
والتلوج والحبال والأنهار فجلا رسومها على شكل جديد فيه حنين وعاطفة ودقة
تصوير . وتبعه كثير من الشباب في محاولاته ، وستؤتى هذه الخطوات أكملها
إذا تعهدنا النقاد وأخلص لها مؤرخو الأدب ؛ وهم سيضيفونها إلى ثروتنا القديمة

في الوصف خلال أربعة عشر قرناً من المشرق إلى الغرب ، لأنها ستكون متحف الوصف العربي .

وسيكون للوصف حينذاك صورة يخلق معها الشاعر بالألوان والأصباغ والظلال كما انعكست في نفسه من حزن أو فرح وحركة أو جمود ، وسيصبح للشعر العربي متحف جميل فيه الحيوان والإنسان والطبيعة الميتة من قرية أو قصر أو كوخ أو بستان أو وجوه الناس ، أو مناظر الأسرة والبيت ومشاهد الأب والأم والأولاد ، وصور البؤس أو الفرح في المصانع والمعامل والشوارع والبيوت ، في المدينة والريف ، تنطق كلها بنفسية الشاعر وتعبر عن روحه ، فيةأثر بها القارئ ويندب مع الشاعر إلى الأفق الذي كان يخلق فيه ويدرك أهدافه ومراميه ، ويبصر بعينه التي كان يرسم بها ، ويحس بروحه التي كان يخلق معها ، وهذا هو الفن الموفق ، والوصف المحوّد ، والخلود في الشعر .

فهرس

صفحة		
٥	تمهيد .
٩	. .	الفصل الأول : وصف الحيوان في العصر الجاهلي
٢٩	. .	الفصل الثاني : وصف الطبيعة الميتة في العصر الجاهلي
٣٥	. .	الفصل الثالث : وصف الخمر والسقاة في العصر الجاهلي
٤١	. .	الفصل الرابع : وصف السلاح والحرب في العصر الجاهلي
٤٧	. . .	الفصل الخامس : الوصف في العصر الأموي
٥٣	. .	الفصل السادس : وصف الحيوان في العصر العباسي
٦٧	. .	الفصل السابع : وصف الطبيعة الميتة في العصر العباسي
٨٥	. .	الفصل الثامن : وصف الخمر والسقاة في العصر العباسي
٩٣	. .	الفصل التاسع : وصف المعارك والحروب في العصر العباسي
٩٧	الفصل العاشر : الوصف في الأندلس
١٠٣	الفصل الحادي عشر : الوصف في العصر الحديث



808.1:D12aA:c.1

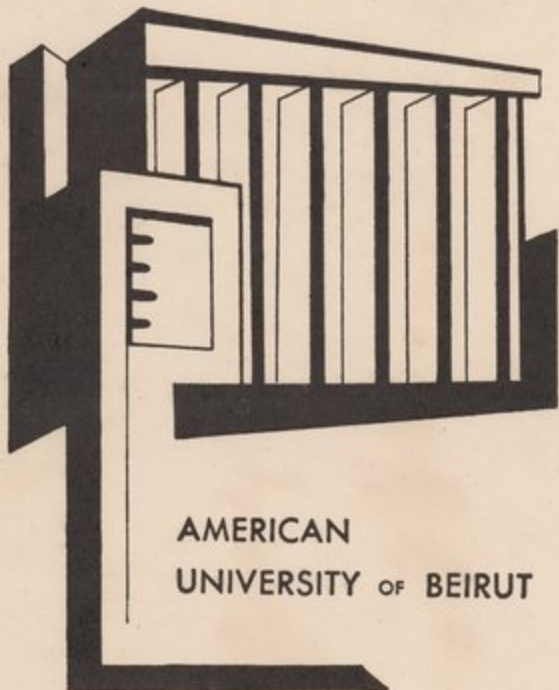
الدهان، سامي

الوصف

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01051764



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

808.1
D/2a A
C.1